سلسلة
توجيهات سلفية

عُدَّة الدَّاعِيَة إِلَى اللهِ

لفضيلة الشيخ
أبي عبد المعز محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

العدد
١٦

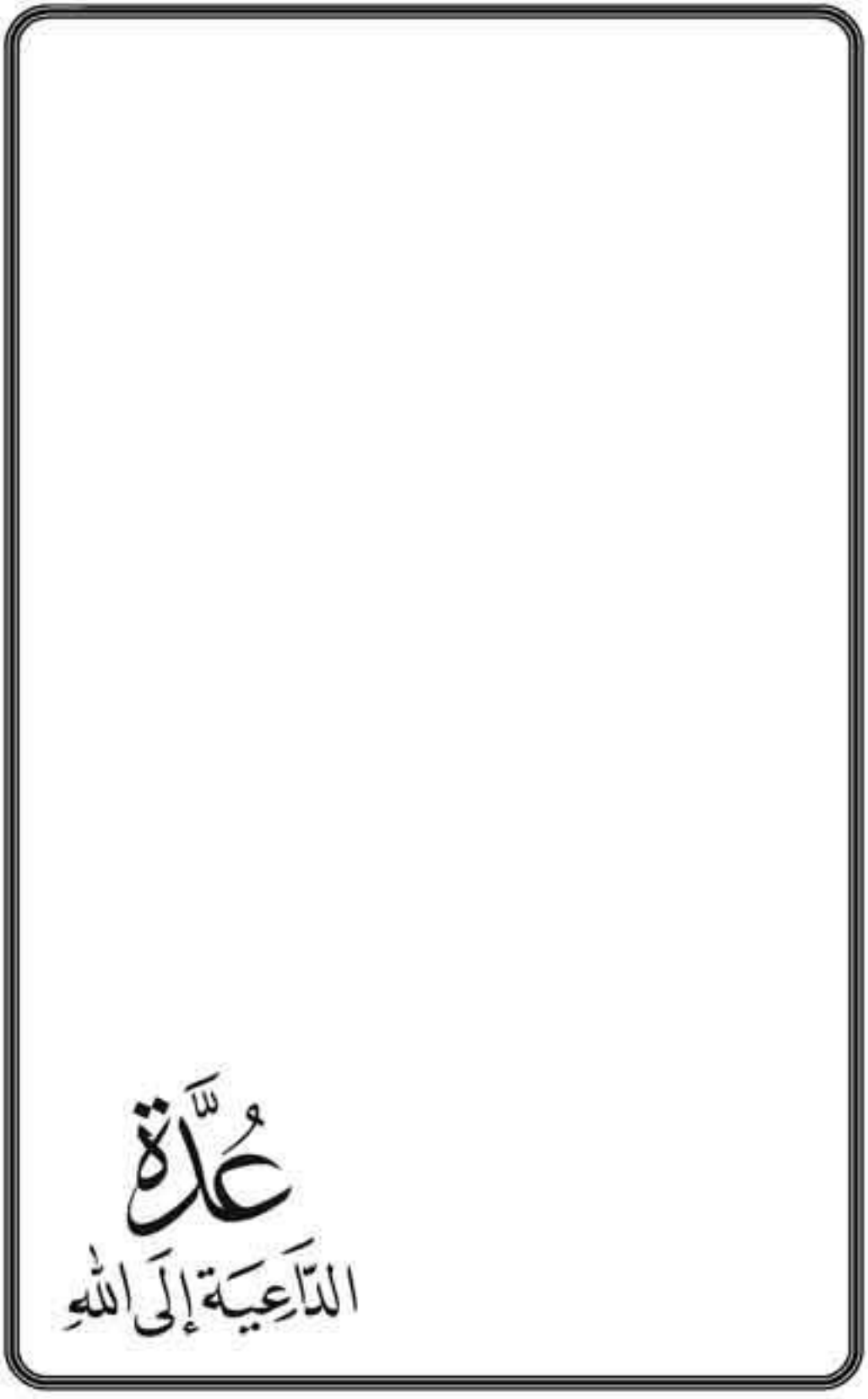

عُدَّةُ الدَّاعِيَةِ إِلَى اللهِ

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

يُحظر طبعُ أو تصويرُ أو ترجمةُ أو إعادةُ تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزَّأ أو تسجيلُه على أشرطة كاسيت أو إدخالُه على الكمبيوتر أو برمجتُه على أسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة خطّية من المؤلِّف

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

رقم الإيداع القانوني: ١٩٠٤ - ٢٠١٢

ردمك: ٩٧٨ - ٩٩٣١ - ٣٨٠ - ١٤ - ٦

دار الموقع

دار العواصم للنشر والتوزيع

٣، شارع عبد الله حواسين، بجوار مسجد الهداية الإسلامية، القبة، الجزائر العاصمة

الهاتف: ٦٦٦٥٢٠١٠٤ (٠) ٢١٣ ٠٠ / ٦٦٧٨٤٢٦٠٦ (٠) ٢١٣ ٠٠ / فاكس: ٢١٢٨٦٦٤٤ (٠) ٢١٣ ٠٠

البريد الإلكتروني: aouassim.maktaba@gmail.com

التصميم والإخراج الفني: الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ فركوس www.ferkous.com

سلسلة
توجيهات سلفية

عُدَّة الدَّاعِيَة إلَى اللهِ

لفضيلة الشيخ الدكتور
أَبِي عَبْدِ المُعِزِّ مُحَمَّد عَلِي فَرْكُوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

العدد
١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ
أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

[سورة يوسف]

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ
ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾

[النحل: ١٢٥]

طليعة السلسلة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهد أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

لقد كان استكتابي للكلمة الشهرية على الإنترنت يفرضه واجبُ القيام بالدعوة إلى الله، الثابتة الأصول في سُنَّةِ النبي ﷺ وسُنَّةِ السلف الصالح من بعده، الذين أظهروا حُجَجَ الإسلامِ، ونشروا محاسنَهُ، ودفعوا عنه الشُّبَهَ بالحُجَّة

والبرهان، وحذَّروا ممَّا أُقْحِمَ فيه من محدثات الأمور، وضلالات أهل البدع والأهواءِ التي هي سببُ كلِّ شقاوة، وبالصبر واليقين سلكوا سبيلَ الدعوة إلى الله على بصيرةٍ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، وجسَّدوا دعوتَهم بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا، وقد عملتُ في محاولةٍ لبلوغ هذا المرمى، وتحقيق هذا المعنى، على تسطير ما يُتَرَجَّى أن تحمله تلك الكلمات الشهرية من إنارةٍ للعقول، وبيانِ مسالكِ الاتباعِ وسُبُلِهِ، والتنزيهِ من الشرك ووجوهِهِ. وقد رأيتُ من المفيد ـ بعدما اجتمعت جملةٌ منها ـ أنْ أضعَهَا في رسائلَ دعويةٍ ضِمْنَ سلسلةٍ سمَّيتها بـ: «توجيهات سلفية».

واللهَ أسألُ أن يرزقَنا الإخلاصَ في السرِّ والعَلَنِ، وأن يعيذَنا من فتنةِ القولِ والعَمَلِ، وأن ينصرَ دينَه، ويُعليَ كلمتَه، ويوفِّقَ القائمين على الدعوة إلى الله بما فيه خيرُ دينِهم، وصلاحُ أُمَّتهم.

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّدٍ وعلى آله وصَحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّينِ، وسَلَّم تسليمًا.

أبو عبد المعز محمَّد علي فركوس

الجزائر في: ٢٠ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ

الموافق لـ: ١٧ مايو ٢٠٠٦م

الإخلاص بركة العلم وسر التوفيق

❋ فضيلة العلم الشرعي والحض على طلبه:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلام على مَن أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمّا بعد:

فإنَّ اكتسابَ مادة كلِّ عِلْمٍ ينبغي أن تكون وَفق أُسُسٍ يبني عليها طالبُ العلم مسيرتَه التحصيليةَ، والعلمُ الشرعيُّ لا يخرج عن هذا المعنى؛ لأنَّ الأصل في الإنسان الجهلُ، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، لكنه مأمور بطلبه في قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة المائدة]، وكلُّ ما أمر اللهُ عزّ وجلَّ به فهو عبادةٌ، فيكون طَلَبُ العِلْمِ في طليعة العبادات وأجلِّها، بل جعله اللهُ قسيمًا للجهاد في سبيل الله[1]، وهو منه قال الله

---

(١) قد يُفَضَّلُ طلبُ العِلم على الجهاد أفضليةً مطلقةً لا بالنسبة للأشخاص لحاجة الناس كلِّهم إليه في كلّ وقت، بينما يفضّل الجهاد في القوي وكذا الأحوال والأزمنة والأمكنة، لذلك نقل عن الإمام أحمد أنَّ: «العلم لا يعدله شيءٌ لمن صَحَّت نيتُه»، وعنه قال: «الناس يحتاجون=

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة التوبة]، ذلك لأنّ العلمَ الشرعيَّ سببُ الهداية، وقائدٌ إلى تقوى الله، وسبيلُ النجاة والوقايةِ من النار، قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، ووقايةُ النَّفسِ والأهلِ من النار إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح، ولا يتمُّ ذلك إلَّا بالعلم الشرعي الصحيح حتى يتمكَّن من أدائه والقيام به على الوجه المطلوب شرعًا، لذلك كان من حَظِيَ برزقِ الله إياه العلمَ الشرعي فقد فتح الله عليه به، وأراد اللهُ به خيرًا، ومَنْ مُنِعَ فقد حُرِم الخير[1]، قال ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[2].

ولَـمَّا كان العلمُ الشرعيُّ عبادةً فإنه ينبغي طلبه ضمن هيئةٍ راسخةٍ في نفس الطالب ليُؤْثِرَ بها الحقَّ والفضيلةَ، ويرغب في رفع الجهل عنه وإزالته عن غيره، وحبِّ المعروف وترسيخه، تلك الهيئةُ المطلوبةُ هي النيةُ الخالصة الصادقةُ التي تتكيَّفُ بها جميع الأعمال صحَّةً وفسادًا تبعًا لها إذ «الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ

= إلى العلم مثل الخبز والماء؛ لأنَّ العلم يحتاج إليه في كلِّ ساعة، والخبز والماء في كلِّ يومٍ مرة أو مرتين».

(١) قال ابن حجر في «الفتح» (١/ ١٦٥): «ومفهوم الحديث أنّ من لم يتفقَّه في الدِّين ـ أي يتعلَّم قواعد الإسلام وما يتّصل بها من الفروع ـ فقد حُرِم الخير».

(٢) أخرجه البخاري في «العلم» (١/ ١٦٤) باب من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يفقِّهه في الدِّين، ومسلم في «الزكاة» (٧/ ١٢٨) باب النهي عن المسألة، من حديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ.

مَا نَوَى»[1]، والنيةُ في الطَّلَب يجب فيها الإخلاص لله سبحانه فهو شرطُ العبادة وركنُ التوحيد، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [سورة الزمر].

❋ قاعدة الإخلاص قوام المطالب العلمية:

هذا، وقاعدةُ الإخلاص في الطلب إنما تتأتَّى بنيَّةِ التقرُّب إلى الله تعالى بكلِّ ما يستلزمُ محبَّته ورضاه، من العِلْمِ به سبحانه وبصفاته، وما يجب له من القيام بأمره، وتنزيهه من العيوب والنقائص، وبمعرفة ما يجب على المكلَّف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، ومعرفة حلاله من حرامه، ساعيًا في ذلك بعزمٍ في رفع الجهل عن نفسه، وحِفظ شريعة الله تعالى بالتعلُّم وضبط حفظه في الصدر وتقييده بالكتابة، والعمل بما حفظه وضبطه امتثالًا لأوامر الشرع ووقوفًا عند حدوده؛ لأنّ ثمرة العلم العمل، وبقاء العلم ببقاء العمل، بل هو من لوازم الإخلاص وسببُ نمائه وزيادتِه، قال ﷺ:

«مَثَلُ العَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في «بدء الوحي» (١/ ٩) باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ومسلم في «الإمارة» (١٣/ ٣٥) باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، وأبو داود في «الطلاق» (٢/ ٦٥١) باب فيما عني به الطلاق والنيات، والترمذي في «الجهاد» (٤/ ١٧٩) باب ما جاء فيمن يقاتل رياءً وللدنيا، والنسائي في «الطهارة» (١/ ٥٨) باب النية في الوضوء، وابن ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤١٣) باب النية، وأحمد (١/ ٢٥، ٤٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»[١]، ذلك لأنّ العمل هو شُكْرُ الله على نعمةِ العلم، وقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ومن عمل بما عَلِمَ ورَّثه اللهُ عِلمَ ما لم يعلم، ومَن لم يعمل بعلمه لَمْ يكن صادقًا في طلبه وعُوقب بنسيان العلم وضياع معارِفِه وحرمانه من الخير، واستحق المقت والآفات، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، ويتبيَّن من الآية أنّ ترك العمل بالعلم يورِّثُ فشلًا في الطلب ومَحْقًا للبركة ونسيانًا ذِهنيًّا وعمليًّا بترك النهوض به والقيام بلوازمه، قال الثوري: «العِلْمُ يَهْتِفُ بِالعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ»[٢]، مِن أَجْلِ ذلك كان الصدقُ خُلُقًا مُقترِنًا بالإخلاص يتحلَّى به الطالبُ قبل العِلم ولا يتحقَّقُ الارتقاءُ في مدارج الكمالِ والعلمِ إلَّا لصادقٍ، قال الأوزاعيُّ رحمه الله: «تَعَلَّمِ الصِّدْقَ قَبْلَ أَنْ تَتَعَلَّمَ العِلْمَ»، وقال وكيع رحمه الله: «هَذِهِ الصَّنْعَةُ لَا يَرْتَفِعُ فِيهَا إِلَّا صَادِقٌ»[٣].

هذا، وكما أنَّ من الإخلاص أن ينوي رفعَ الجهلِ عن نفسه فعليه أن يستتبِعَه ـ أيضًا ـ بِنِيَّةِ رفعِ الجهل عن غيره، وذلك بالدعوة إلى الله تعالى بتبليغ العلم للناس

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥، ١٦٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٨٢)، والشيباني في «الآحاد والمثاني» (٤/ ٢٩٣) من حديث جندب بن عبد الله الأزدي رضي الله عنه. والحديث صحّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢/٢٨٩) برقم: (٢٣٢٨).

(٢) «الموافقات» للشاطبي (١/ ٧٥).

(٣) «المجموعة العلمية» لبكر (١٨٢).

وبيانِ ذكر الله وما نزل من الحقِّ، ونشرِه ليحصل به النفعُ والهدى، مِصداقًا لقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ويعمل على حماية جناب التوحيد، وصيانةِ كمال الدِّين مما قد يُقحم فيه ما ليس منه، والدفاعِ عن شريعة الله التي جاء بها المصطفى ﷺ وحِفظها من زيادة المبتدعين، واستدراكات المستدركين.

❋ اختلاف النيات في تحصيل العلم:

■ فمن صاحبته هذه النيَّةُ الخالصةُ الصادقةُ بالعمل الصالح كان على هُدًى وبصيرةٍ، وخيرٍ ونعمةٍ وَتُقًى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [سورة محمد]، وفتحَ اللهُ له أبوابَ الخيرِ، وأَتَتْهُ الدنيا راغمةً، وحصل له ثواب الآخرة، لسلامة قصده وصلاح نيَّته، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النحل]، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»(١)، وقال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ رحمه الله: «مَنِ ابْتَغَى شَيْئًا مِنَ العِلْمِ يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ آتَاهُ اللهُ مِنْهُ مَا يَكْفِيهِ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في «صفة القيامة» (٤/ ٦٤٢) باب (٣٠)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه ابن ماجه في «الزهد» (٢/ ١٣٧٥) باب الهمّ بالدنيا من حديث زيد بن ثابت ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٧٠)، رقم (٩٤٩، ٩٥٠).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٢).

■ أمّا مَن أُصيبت نيَّتُه في صميم صِدْقِ طَلَبِ العلم بِكَدَرٍ وَزَغَلٍ، وجعل تحصيلَه له مَطِيَّةً لأغراضٍ وأعراضٍ: مِن طلب الدنيا والمالِ والرئاسةِ والظهورِ والتفوّقِ والسُّمْعَةِ والرِّياء والمحمدة وغيرِها من المقاصد السيّئة؛ فإنّ إرادته تشوبُها شوائبُ الفساد والبطلان، وتزول من جرَّائها بركةُ العلم وترتفع خيريتُه، قال ﷺ: «مَن تَعلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1] يعني: ريحها. وفي حديثٍ آخرَ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»[2]، وقد ينال بعلمه ما يبتغيه بنيته الفاسدةِ من إحراز دنياه، ولا يحصِّل منها إلَّا ما كُتب له، لكنّ جزاءَه الفقرُ والتشتيتُ والغفلةُ والضياع في الدنيا، وكان عاقبةُ أمرِه خُسرًا، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥﴾ [سورة هود]، فمن جرَّد قصدَه إلى الدنيا يُعْطِهِ اللهُ تعالى بعمله ثوابَ الدنيا إذا شاء سبحانه كما جاء تقييدُ الآية في قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ

---

(١) أخرجه أبو داود في «العلم» (٤/ ٧١) باب طلب العلم لغير الله تعالى، وابن ماجه في «المقدمة» (١/ ٩٢) باب الانتفاع بالعلم والعمل به، وابن حبان (١/ ٢٧٩ (٧٨))، والحاكم (١/ ١٦٠ (٢٧٩)) من حديث أبي هريرة ﷺ، والحديث صحَّحه الألباني في صحيح «الترغيب والترهيب» (١/ ١٥٣) برقم: (١٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي في «العلم» (٥/ ٣٢)، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، وابن أبي الدنيا في «كتاب الصمت» (١/ ١٠٥ (١٤١)) و«كتاب الغيبة والنميمة» (١/ ١٥ (٣)) من حديث كعب بن مالك ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٥٣) برقم: (١٠٦).

﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الإسراء]، وليس له أن يطلب بالعلم الشرعي أمرًا غير ما شرع له؛ لأنه عبادةٌ، ومن ابتغى بالعبادة غيرَ ما شرعت له فقد ناقض الشريعةَ، وجزاءُ من ناقضَهَا بطلانُ العمل، وقد يُعامَلُ بنقيض مقصوده، قال ﷺ: «وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[1]، قال الحسنُ بنُ أبي الحسن البصري رحمه الله: «مَنْ طَلَبَ شَيْئًا مِنْ هَذَا العِلْمِ فَأَرَادَ بِهِ مَا عِنْدَ اللهِ يُدْرِكْ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَمَنْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا فَذَاكَ حَظُّهُ مِنْهُ»[2]؛ ذلك لأنه استعمل العبادةَ فيما لم تشرع لأجله، واتخذها مَطِيَّةً لتحصيل غَرَضِهِ، فكان ظُلْمًا في حقِّ الله على عباده، وتلاعبًا بالشريعة بوضع الأمور في غير مواضعها، فاستوجب أن يكون أوّلَ الناس يُقضى يوم القيامة: ثلاثة أجهدوا أنفسَهم في الطاعات والعبادات ولم تنفعهم طاعتُهم وعبادتُهم وإنما صارت عذابًا؛ لأنهم لم يبتغوا بها وَجْهَ الله تعالى، فمن هؤلاء: «...وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[3].

---

(١) تقدم تخريجه، انظر (ص ١٣).

(٢) «سنن الدارمي» (١/ ٨٠).

(٣) أخرجه مسلم في «الإمارة» (١٣/ ٥٠) باب من قاتل للرياء والسمعة استحقَّ النار، والنسائي في «الجهاد» (٦/ ٣٢) باب من قاتل ليقال فلان جريء، والحاكم (١/ ١٠٧،=

■ وصِنْفٌ آخَرُ تعيَّنتْ دوافعُ طلبه في غير المقاصد الدنيوية، وإنما قَصَرَ نِيَّةَ الطلب على تحصيل العلم في ذاته، والظفرِ بالحِكمة مجرّدةً عن العمل، وهذا ـ أيضًا ـ يشوبُ صفاءَ الإخلاصِ بِكَدَرٍ؛ لأنه لم يُخلص لله تعالى من جهة، وجعل طلبَ العلم وسيلةً لعبادة لم تُقِرَّها الشريعةُ، إذ لا يخفى أنّ العلم المطلوبَ الذي نحتاج إليه وأخبرنا اللهُ تعالى به، وعلّمنا إياه، هو: ما كان وسيلةً إلى العمل به، والعملُ بما يقتضيه العلم من الإيمان به والإقبال على الطاعات والقيام بها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وغيرها من الأعمال، فإنّ ذلك العلم مطلوبٌ لا في ذاته ولكن لثمرته وهي العملُ به، فمن عَلِمَ ولم يَعْمَلْ فقد شابَه اليهودَ المغضوبَ عليهم، ومن عَمِلَ بلا عِلْمٍ فقد شابَه النصارى الضالين، ومن جمع بين العلم النافع والعمل الصالح واتصف بهما ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [سورة النساء]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ونظير هذا ما يُذكر أنّ بعض الناس بَلَغَه أنه: «مَنْ أَخْلَصَ لله أَرْبَعِينَ صَبَاحًا تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»[1]، فأخلص في ظنّه أربعين صباحًا لِيَنَالَ الحكمةَ فلم يَنَلْهَا، فشكى ذلك إلى بعضِ حُكماءِ الدِّين فقال:

= ٢/ ١١٠)، والبيهقي (٩/ ١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ٢٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٨٩) من حديث أبي أيوب الأنصاري مرفوعًا. والحديث ضعَّفه الألباني في «الجامع الصغير وزيادته» (٥/ ١٥٥ (٥٣٧٥)) وفي «ضعيف الترغيب والترهيب» (١/ ٢٠) برقم: (٦)، وفي «السلسلة الضعيفة» (١/ ٥٥) برقم: (٣٨).

إنك لم تُخلصْ لله سبحانه وإنما أخلصتَ للحكمة، يعني أنّ الإخلاص لله سبحانه وتعالى إرادةُ وجهِه، فإذا حصل ذلك حَصَلت الحكمة تَبعًا، فإذا كانت الحكمةُ هي المقصودَ ابتداءً لم يقع الإخلاص لله سبحانه وإنما وقع ما يظنّ أنه إخلاصٌ لله تعالى، وكذلك قولُه ﷺ: «مَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»(١)، فلو تواضع ليرفعه الله سبحانه لم يكن متواضعًا فإنه يكون مقصوده الرفعة وذلك ينافي التواضع»(٢).

هذا، ومن أقوال بعض السلف في باب العمل بالعلم وحسن النية فيه قول معاذ بن جبل ﷺ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ بَعْدَ أَنْ تَعْلَمُوا فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللهُ تعالى بِالعِلْمِ حَتَّى تَعْمَلُوا»(٣)، وقول أبي الدرداء ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْتَفِعُ بِعِلْمِهِ»(٤)، وقال أيضًا: «مَا أَخَافُ عَلَى نَفْسِي أَنْ يُقَالَ لِي: مَا عَلِمْتَ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي مَاذَا عَمِلْتَ؟»(٥).

ومع ذلك فإنّ مُبتغي العلمِ المحبَّ له الطامعَ في تحصيله قد يَرُدُّهُ العلم إلى النية الصالحة فيفتح الله تعالى عليه باب العمل والخير والنفع، فقد جاء عن مجاهدٍ

---

(١) أخرجه مسلم في «البر والصلة والآداب» (١٦/ ١٤١) باب استحباب العفو والتواضع، والترمذي في «البر والصلة» (٤/ ٣٧٦)، باب ما جاء في التواضع، وابن خزيمة في «صحيحه» (٤/ ٩٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ١٨٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٦/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ٨١)، باب العمل بالعلم وحسن النية فيه.

(٤) المصدر السابق الجزء نفسه: (٨٢).

(٥) المصدر السابق الجزء والصفحة نفسها، وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» بهذا المعنى في باب العلم (١٠/ ٢٣٨) عن أبي الدرداء ﷺ.

ابنِ جَبْرٍ رحمه الله قوله: «طَلَبْنَا هذا العِلْمَ وَمَا لَنَا فِيهِ كَبِيرُ نِيَّةٍ، ثُمَّ رَزَقَ اللهُ بَعْدُ فِيهِ النِّيَّةَ»[1]، وقال مَعْمَر بن راشد رحمه الله: «كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَطْلُبُ العِلْمَ لِغَيْرِ اللهِ، فَيَأْبَى عَلَيْهِ العِلْمُ حَتَّى يَكُونَ لله»[2].

وقد ورد في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ تمثيل الانتفاع بالهدى والعلم الذي جاء عن المصطفى ﷺ ممَّن لا ينتفع به بما يقرب شَبَهًا بأصحاب النِّيات على اختلاف البواعث والدوافع في تحصيل العلم الشرعي، فقال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ[3] لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[4].

قال ابن حجر: «قال القرطبيُّ وغيرُه: ضَرَبَ النبيُّ ﷺ لِمَا جاء به من

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ١٠١) باب من طلب العلم بغير نية فردَّه العلم إلى النية.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/ ٢٣٩) باب العلم برقم: (٢٠٦٤٢).

(٣) جمع قاع، وهو الأرض المستوية الملساء التي لا تنبت. [«النهاية» لابن الأثير (٤/ ١٣٣)، «لسان اللسان» لابن منظور (٢/ ٤٢٩)].

(٤) أخرجه البخاري في «العلم» (١/ ١٧٥)، باب فضل من عَلِمَ وَعَلَّمَ، ومسلم في «الفضائل» (١٥/ ٤٥ ـ ٤٦) باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

الدِّين مثلًا بالغيث العامِّ الذي يأتي الناسَ في حال حاجتهم إليه، وكذا كان حال الناس قبل مبعثه، فكما أنّ الغيث يحيي البلدَ الميت فكذا علومُ الدين تُحيي القلبَ الميت، ثمّ شبَّهَ السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالِمُ العامِل المعلِّمُ فهو بمنزلة الأرض الطيِّبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرَها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله أو لم يتفقّه فيما جمع لكنه أدّاه لغيره، فهو بِمَنْزلة الأرض التي يستقرّ فيها الماء فينتفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله: «نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَأَدَّاهَا كَمَا سَمِعَهَا»[1]، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمَنْزلة الأرض السَّبْخَة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها، وإنما جمع في المثل بين الطائفتين الأوليين المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاع بهما، وأفرد الطائفة الثالثة المذمومة لعدم النفع بها»[2].

❋ سمة محقق الإخلاص:

هذا، ومن علامات محقِّق الإخلاص والصدق:

- أن يُحِبَّ الدِّينَ ويعملَ على التواصي بالحقِّ والصبر عليه، وإذا ما خُيِّرَ

---

(١) أخرجه أبو داود في «العلم» (٤/ ٦٤) باب فضل نشر العلم، والترمذي في «العلم» (٥/ ٣٣) باب ما جاء في الحثّ عن تبليغ السَّماع، وابن ماجه في «المقدّمة» (١/ ٨٤) باب من بلغ علمًا من حديث زيد بن ثابت ﷺ. والحديث صحّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم: (٣٦٦٠) وفي «صحيح الترغيب» برقم: (٩٠).

(٢) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٧٧).

بين أمرين عُرِضَا عليه: أحدهما لله، والآخر للدنيا، اختار نصيبه من الله وآثره على الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة، وهو يعلم أنّ الباقية خير من الفانية، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤﴾ [الضحى]، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٧﴾ [الأعلى]، ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

■ أن ترضيَهُ كلمةُ الحقِّ له أو عليه، وتغضبَهُ كلمةُ الباطل له أو عليه، فهو لا يعمل لنفسه، وإنما يسعى لإرضاء ربِّه سبحانه، ولو أدّى ذلك إلى سخط الناس عليه وسقوط قدره في قلوبهم، وصغره في أعينهم من أجل إصلاح قلبه مع الله تعالى، «وَالجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ»، و«المُعَامَلَةُ بِنَقِيضِ القَصْدِ»، قال ﷺ: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللهُ النَّاسَ، وَمَنْ أَسْخَطَ اللهَ بِرِضَى النَّاسِ، وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ»[1]، قال ابن القيم رحمه الله: «لَـمَّا كان المتزيِّنُ بما ليس فيه ضدَّ المخلِصِ؛ فإنه يُظْهِرُ للناس أمرًا، وهو في الباطن بخلافه، عَامَلَهُ بنقيض قصده، فإنَّ المعاقبة بنقيضِ القَصْدِ ثـابتةٌ شرعًا وَقَدَرًا، ولَـمَّا كان المخلصُ يُعجَّل له من ثواب إخلاصه الحلاوة والمحبّة والمهابة في قلوب الناس، عُجِّل للمتزيِّن بما ليس فيه من عقوبته أن شانه اللهُ بين الناس؛ لأنّه شان باطنَه عند الله، وهذا مُوجَبُ أسماءِ الربِّ الحُسنى وصفاتِه العُلْيَا وحِكمتِه في قضائِه

---

(١) أخرجه ابن حبان في «الإمارة» برقم: (١٥٤١) باب فيمن يرضي الله بسخط الناس، والبغوي في «شرح السُّنَّة» في «الرقاق» (١٤/ ٤١٢) باب: قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ من حديث عائشة رضي الله عنها والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٣٩٢) برقم: (٢٣١١).

وشرعه»[1].

■ أن يكره المخلِصُ أن يطَّلعَ غيرُه على عمله أو يُنسبَ إليه، قال الشافعي رحمه الله: «وَدِدْتُ أنَّ الخَلْقَ يتعلَّمون هذا العلمَ ولا يُنْسَبُ إليَّ منه شيء»[2].

■ وَأن يَوَدَّ ـ في ميدان تعليم الناس الخير وإفتائهم بالحقّ ـ أن يكفيَه غيرُه مؤونةَ الفتوى والبيانِ، وإذا استوجبَ المقامُ تصدِّيه للفتوى والتوجيه حرص على تجرّده للحقِّ بسلوك سبيلِهِ، مُعْرِضًا عن حظوظ النفس والاعتزاز بها، مترفّعًا عن الهوى وشِرَاكِهِ.

■ وإن خاصم غيرَهُ فلا يعملُ على غَلَبة خصمه بالشبهات والباطل؛ لأنه يعلم أنه ليس من التقوى والإخلاص، قال ﷺ: «مَنْ خَاصَمَ فِي بَاطِلٍ ـ وَهُوَ يَعْلَمُهُ ـ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهُ»[3]، وإنما يتمنَّى أن يُظهِرَ اللهُ الحقَّ على لسان مُنَاظِرِهِ، قال الشافعيُّ رحمه الله: «ما ناظرتُ أحدًا قطُّ إلَّا أحببتُ أن يُوفَّقَ ويُسدَّدَ ويُعانَ، ويكون عليه رعاية من الله وحفظ، وما ناظرت أحدًا إلَّا ولم أُبَالِ

---

(١) «أعلام الموقّعين» لابن القيم (٢/ ١٨٠).

(٢) انظر: «حلية الأولياء» للأصفهاني (٩/ ٨٨)، و«الإحياء» للغزالي (١/ ٢٦)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٥١)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٢٣).

(٣) أخرجه أبو داود في «الأقضية» (٤/ ٢٣) باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٨٢) وفي «شعب الإيمان» (٥/ ٣٠٤)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٧٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، والحديث صحَّحه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ٢/ ٧٩٨) برقم: (٤٣٧) وفي «الإرواء» (٧/ ٣٤٩) (٢٣١٨).

بَيَّنَ اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانِهِ»[1].

وذكر أبو حامد الغزالي علاماتٍ أخرى للصادق المخلصِ حيث قال: «فاعلم أنّ لذلك علامات:

• إحداها: أنه لو ظَهَرَ من هو أحسنُ منه وَعْظًا أو أَغْزَرُ منه عِلْمًا، والناس له أشدُّ قبولًا، فرح به ولم يحسده...

• والأخرى: أنَّ الأكابر إذا حضروا مجلسَهُ لَمْ يتغيّر كلامُه بل بقي كما كان عليه، فينظر إلى الخلق بعينٍ واحدةٍ.

• والأخرى: أَنْ لا يحبَّ اتباعَ الناس له في الطريق، والمشيَ خلفه في الأسواق، ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها»[2].

❋ مشقة الإخلاص في تثبيت تحول القلب:

إنَّ الصِّدْقَ في الإخلاصِ أشقُّ الأعمال صعوبةً على النفس، وأشدُّها على القلب لاستبقائه سالِمًا من المقاصد السيّئة، بعيدًا عن أغراض الدنيا وشهواتها؛ ذلك لأنّ القلوبَ كثيرةُ التقلُّبِ والتحوُّل في نواياها وقصودها، فلا تثبتُ على حالٍ، لذلك بيَّن النبيُّ ﷺ حقيقةَ تَحَوُّلِ القلبِ في وجهته وقصدِه، فكثيرًا ما كان يدعو بالتثبيت على الدِّينِ حيثُ قال: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ

---

(١) «حلية الأولياء» للأصفهاني (٩/ ٨٨)، و«الإحياء» للغزالي (١/ ٢٦)، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٥١)، و«فيض القدير» للمناوي (٣/ ٩٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» للغزالي (٣/ ٣٢٩).

الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، وَالمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ، يَرْفَعُ أَقْوَامًا، وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1]، وكان يقول في دعائه: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[2]، ويُكْثِرُ في قَسَمِهِ عبارةَ: «لَا، وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ»[3].

فالإخلاصُ شديدٌ، وقد لاقى كثيرٌ من العلماء والصالحين معاناةً لعلاج نيَّتهم به، فيُؤْثَرُ عن سفيانَ الثوريِّ رحمه الله أنه قال: «مَا عَالَجْتُ شَيْئًا أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نِيَّتِي، لأَنَّهَا تَتَقَلَّبُ عَلَيَّ»[4]، وسأل الفضلُ بنُ زيادٍ رحمه الله الإمامَ أحمد رحمه الله فقال: «كيف النيَّة؟ قال أحمد: يُعَالِجُ نَفْسَهُ إِذَا أَرَادَ عَمَلًا لا يُرِيدُ بِهِ النَّاسَ»[5].

ولَـمَّا كانت النفسُ بِطَبْعِهَا تميلُ إلى الشرِّ، وَتَفِرُّ من الخير، وتأمر بالسوء،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «المقدمة» (١/ ٧٢) باب فيما أنكرت الجهمية، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٢٢)، والحاكم في «مستدركه» (١/ ٧٠٦، ٤/ ٣٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٨٢) من حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه، والحديث صحّحه الألباني في «ظلال الجنة» (١/ ٩٨ (٢١٩))، وفي «صحيح ابن ماجه» (١/ ٨٦ (١٦٦)).

(٢) جزء من حديث نواس بن سمعان السابق. (انظر المصادر الحديثية السابقة).

(٣) أخرجه البخاري في «الأيمان والنذور» (١١/ ٥٣٢) باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، وأبو داود في «الأيمان والنذور» (٣/ ٥٧٧) باب ما جاء في يمين النبي ﷺ ما كانت؟ والترمذي في «الأيمان والنذور» (٤/ ١١٣) باب ما جاء كيف كان يمين النبيِّ ﷺ، والنسائي في «الأيمان والنذور» (٧/ ٢)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) «حلية الأولياء» للأصفهاني (٧/ ٥، ٦٢)، «الجامع لأخلاق الراوي» للبغدادي (١/ ٣١٧)، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٣).

(٥) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ١٠).

وتَنْجَرِفُ مع الهوى، وتركن إلى الشهوات، والعبدُ قد يُؤْتَى من جهله أو من قِلَّةِ حَذَرِهِ كان لزامًا عليه معرفة ما يضادّ الإخلاص وينافيه ليتحرّز منه، ويعمل على أن يأخذ نفسَهُ بمراقبة الله تعالى حتى يتيقَّن أنه سبحانه عالِمٌ بِسِرِّهِ، رقيبٌ على أعماله، مستشعرًا الراحةَ في الاستعانة به وعلى طاعته، مستأنسًا بذِكْرِهِ والتعوّذِ به من كلِّ قَبيحة ورذيلة، ويعمل على محاسبة نفسه على عمل يومه، فإن رأى ظلمًا نَدِمَ عليه، واستغفر وأناب، وعمل من الخير ما يراه مصلحًا لِمَا أفسدَ، في تواصل وصَبْرٍ ـ جهادًا في ذات الله سبحانه ـ لتطهُرَ نفسُه وتَزْكُوَ حتى يصبحَ أهلًا لكرامة الله ورضاه، ويسلك بها سبيل المؤمنين المخلصين الصادقين من أهل الصبر واليقين مقتديًا بهم ومقتفيًا آثارَهم.

نسألُ اللهَ تعالى أن يَهَبَنَا العلمَ والإيمانَ، وهما أسمى هِبَاتِ الرحمن، وأهلهما هم خُلاصةُ الوجود ولُبُّه، وأهل التأهيل للمراتب العُلْيَا والدرجات الرفيعة.

قال ابن القيم رحمه الله: «أفضلُ ما اكتسبته النفوسُ، وحصَّلَتْهُ القلوبُ، ونال به العبدُ الرِّفعةَ في الدنيا والآخرة هو العلمُ والإيمانُ، ولهذا قَرَنَ بينهما سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[1] [المجادلة: ١١].

نسألُ اللهَ تعالى أن يَعْصِمَنَا من الخطأ والزَّلَلِ، وأن يوفِّقَنَا إلى حقِّ العلم وخيرِ العِلم وأكمل العمل، إنه وَلِيُّ ذلك والقادرُ عليه.

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٠٣).

الدعائم الإيمانية للداعية

إنَّ مَهَمَّة الداعي إلى الله تتطلَّب ـ عمليًّا ـ تجسيدَ دعائمَ إيمانيةٍ قويَّةِ البنيان متينةِ الإحكام، قصْدَ القيام بوظيفته الدعوية على الوجه الأكمل والمَرْضيِّ، وهي ـ في الأصل ـ امتدادٌ لوظيفة الرسل والأنبياء، وهذه الدعائم الإيمانية هو بحاجةٍ ماسَّةٍ إليها، وخاصَّةً في الآونة الراهنة، ويمكن حصرُها في ثلاث دعائمَ إيمانيةٍ محوريةٍ، تتمثَّل في: فهمِ المنهج الدعويِّ وما يصحبه من ركيزتين أساسيَّتين أوَّلاً، وفي صدق الإيمان الراسخ وما يترتَّب عليه من ثمراتٍ ولوازمَ ثانيًا، وفي الاعتماد القلبيِّ الموصول بالله ثالثًا.

وسنتعرَّض لهذه الدعائم الثلاث فيما يلي:

❋ الدعامة الأولى: فهم المنهج الدعوي:

وأعني بفهم المنهج الدعويِّ الفهمَ الدقيق للطريق الذي ينتهجه الداعية إلى الله تعالى في سلوكه العمليِّ ودعوته، وهو فهمٌ دقيقٌ قائمٌ على علمٍ بطريق الآخرة، بمعرفة أحكام الشريعة ومعانيها ومراميها ومقاصدها، والوقوفِ عندها تدبُّرًا وتفكُّرًا وإمعانًا وعملاً، ومعرفةِ الخالق الذي يدعو إليه وطريقِ الوصول إليه، وما

يحصل عليه المطيع من وعدٍ وكرامةٍ، ومعرفةِ ما يدعو إليه الشيطانُ وحزبُه والسبلِ الموصلة إليه، وما يحصل عليه مطيعُ الشيطان من وعيدٍ وإهانةٍ، وهذه المعرفة تُمكِّن الداعيةَ إلى الله تعالى من التمييز بين الحقِّ والباطل فيما اختلف الناسُ فيه، فيرى بها الحقَّ حقًّا والهدى هدىً والباطلَ باطلاً والضلالَ ضلالاً، ويجعل اللهُ سبحانه وتعالى بهذه المعرفة نورًا في قلب الداعية وقوَّةً وانشراحًا وتعلُّقًا أكثرَ بالآخرة وعزوفًا أشدَّ عن الدنيا(١).

ولا يتحقَّق للداعية إلى الله تعالى التمييزُ بين الحقِّ والباطل لِيَخْلُصَ إلى عقيدةٍ صحيحةٍ يعتمد عليها إلَّا إذا سار وَفْقَ منهجٍ سليمٍ، قائمٍ على صحيح المنقول الثابتِ بالكتاب والسنَّة، والآثار الواردة عن الصحابة ﷺ، والتابعين من أئمَّة الهدى ومصابيح الدُّجَى الذين سلكوا طريقَهم، كما قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(٢). فكان هذا الصراط القويم يتمثَّل في طلب العلم بالمطالب الإلهية عن طريق الاستدلال بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والاسترشادِ بفهم الصحابة والتابعين ومن ألتزم بمنهجهم من العلماء مِن أعظمِ ما يتميَّز به أهلُ السنَّة والجماعة عن أهل الأهواء والفُرقة، ومن مميِّزاتهم

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيِّم (١/ ٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الشهادات» باب لا يشهد على شهادة جَوْرٍ إذا شهد (٢٦٥٢)، ومسلم في «الفضائل» رقم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعودٍ ﷺ. وله شاهدٌ من حديث النعمان بن بشيرٍ ﷺ بهذا اللفظ إلاَّ أنه قال ثلاث مرَّاتٍ: «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، فأثبت القرن الرابع. [انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٣٢٠)].

الكبرى: عدمُ معارَضتهم الوحيَ بعقلٍ أو رأيٍ أو قياسٍ، وتقديمُهم الشرعَ على العقل، مع أنَّ العقل الصريحَ لا يعارض النصَّ الصحيح بل هو موافقٌ له، ورفضُهم التأويلَ الكلاميَّ للنصوص الشرعية بأنواع المجازات، واتِّخاذُهم الكتابَ والسنَّة ميزانًا للقبول والرفض، تلك هي أهمُّ قواعدِ المنهج السلفيِّ وخصائصِه الكبرى التي لم يتَّصف بها أحدٌ سواهم، ذلك لأنَّ مصدر التلقِّي عند مخالفيهم من أهل الأهواء والباطل والبِدَع هو العقلُ الذي أفسدتْه تُرَّهاتُ الفلاسفة، وخُزَعْبَلات المناطقة، وتَمَحُّلات المتكلِّمين، فأفرطوا في تحكيم العقل وردِّ النصوص ومعارضتِها به، وغيرِ ذلك مِمَّا هو معلومٌ من مذهب الخلف.

ومن مميِّزات الفهم السليم لهذا المنهج الدعويِّ ـ بما تقدَّم من اعتبارٍ ـ: تحريكُ قلب الداعية وتهييجُه إلى ركوب مطيَّته والاستشعارِ بغربةٍ في الدنيا ودنوِّ رحيله عنها إلى سفرٍ لا عودةَ له منه، ولا ينفع فيه من زادٍ إلاَّ التقوى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(١)، وقال ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ القُبُورِ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في «الزهد» (٢٣٧٧) وأحمد (٣٧٠٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الرقاق» باب قول النبيِّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ =

وعليه، فإنَّ الفهم السليم يقوم على ركيزتين أساسيَّتين:

■ **الركيزة الأولى**: أن يُدرك الداعية حقيقةَ وجوده في الحياة والغايةَ منها، وتتجلَّى في تحقيق العبودية لله تعالى وتحصيلِ الغاية العظمى مِن خَلْق الخلق ومِن بعْثِ الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فيَحْمِل الداعية نفْسَه على الطاعة والدعوةِ إلى الله، وهدايةِ الحيارى إلى أقوم صراطٍ، وقيادَتِهم إلى الحقِّ، وإخراجِهم من الظلمات إلى النور، والجهادِ في سبيل الله باليد والمال واللسان والقلم لتكون كلمة الله هي العليا، وعمارةِ الأرض بفعل الحسنات والطاعات، وغيرها من المهامِّ النبيلة التي ينتهض بها الداعية بصحَّة القصد وصِدْق النيَّة، وغايتُه في ذلك مرضاةُ ربِّه سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۖ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج].

فمَنْصِبُ الداعي إلى الله بين الناس ـ بهذا المنظور في بُعْدِه الدعويِّ ـ هو

= سَبِيلٍ» (٦٤١٦) دون الجملة الأخيرة، والترمذي في «الزهد» باب ما جاء في قِصَرِ الأمل (٢٣٣٣)، وابن ماجه في «الزهد» باب مثل الدنيا (٤١١٤)، من حديث ابن عمر ﷺ، والحديث صحَّحه الألباني بالزيادة لشواهدها في «السلسلة الصحيحة» (١١٥٧).

الإمامةُ بالحقِّ وهدايةُ الخلق، وحملُ الناس على إصلاح عقيدتهم وعباداتِهم وسلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتِهم، وذلك بالقدوة الصالحة وإرشادِهم إلى أكملِ حالةٍ، وبأحسنِ وسيلةٍ، ومِن أقربِ طريقٍ، «لأنَّ فِعْلَ الخير والاتِّصافَ بالكمال دعوةٌ إليهما بالعمل، وهي أبلغُ من الدعوة بالقول»[1].

وفي مقابل ذلك فإنَّ من أسوإ المساعي طَلَبَ الإمامةِ لأجل الترؤُّس على الناس والتقدُّم عليهم، فإنَّ السعي في تحصيله مذمومٌ، لأنه مسعى المتكبِّرين لا مِن عملِ المتَّقين، بَلْهَ من يهتبل فُرَصَ الحياة ليتمتَّع بملاذِّ الجسد ما وَسِعَه وليس له من غايةٍ في الحياة إلاَّ إشباعُ الرغبات والشهوات والتمتُّعُ بالملذَّات، ويأكل كما تأكل الأنعامُ، فذلك منتهى أَمَلِه وأقصى غايته ومبلغُ عِلْمِه، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩ـ٣٠]، وعمارتُهم في الأرض بالبغي والفساد، وعملُهم الدعويُّ الإنكارُ والتشكيك وإثارةُ الشبهات لإخراج الناس من النور إلى الظلمات، فمَنْصِبُ الداعية فيهم الإمامةُ بالباطل وتضليلُ الخلق والسعيُ إلى إفسادهم، فهؤلاء هم دعاة النار، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١﴾ [البقرة]، وقال أيضًا: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ [القصص].

■ الركيزة الثانية: أن يعمل الداعية على تَرْكِ تعلُّقه بالحياة الدنيا وملذَّاتها

---

(١) «مجالس التذكير» لابن باديس (٢٩٨).

ويفرِّغ قلبه من سمومها ويتجافى عنها؛ لأنها دارُ غرورٍ[1]، وقد حذَّرنا الله ورسولُه من خطورة التعلُّق بها والوقوعِ في شراكها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر]، وقال ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[2]، ويحرص الداعيةُ إلى الله ـ في تحقيق غايته ـ أن يجعل قلبَه متعلِّقًا بالآخرة ويُقْبِلَ عليها بصدقٍ ويُؤْثِرَها على الدنيا لأنها باقيةٌ، والباقي أحقُّ بالحرص والعمل من الفاني، قال تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]، والباقي الوفير جديرٌ بالتقديم على القليل الزائل، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء]، وعلى الداعية إلى الله أن يشعر بالغربة في الدنيا ويُحِسَّ بقرب رحيله عنها حتَّى يقطع التسويفَ وطولَ الأمل، فيَقْصُرُ أملُه في الدنيا ويجعلُها مزرعةَ الآخرة ومطيَّةَ النجاة، وهذه الحقيقة اتَّفقت وصايا الأنبياء وأتباعهم على التنبيه عليها، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر]، وقال ﷺ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيِّم (١/ ١٤٩).

(٢) أخرجه مسلم في «الرقاق» (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد ﷺ.

وَنَرَكَهَا»[1]، وعلى الداعية أن يتزوَّد من دنياه لآخرته، فإنَّ الإحساس بالغربة أدعى له إلى المبادرة بفعل الصالحات والقيامِ بالطاعات والإكثارِ مِن فِعْل الخيرات، فلا يُهْمِل ولا يُمْهِل اغتنامًا للدنيا للفوز بالآخرة قبل فوات الأوان، لأنه لا يدري متى ينتهي أجلُه، قال ابن عمر ﷺ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[2]، فعلى الداعية أن يجتهد في العمل الصالح ويُكْثِرَ من وجوه الخير، وفي طليعة ذلك الدعوةُ إلى الحقِّ وهدايةُ الخلق، مع التجافي عن الدنيا والزهد فيها والإعراض عن مشاغلها، فما أحْوَجَ الداعيةَ إلى الله إلى هذا الفهم الدقيق لمنهجه في الحياة والدعوة، فهو لبُّ العلم وغايتُه، وبه يتميَّز المنهج الدعويُّ الذي يسلكه مع إخلاص القصد فيه، وبدونه لا يُعَدُّ العالم عالمًا ربَّانيًّا وإن حفظ المتونَ وردَّدها بلسانه، واستوعب شروحَها وملأ بها صدْرَه، واستحكم الأحكامَ بأصولها وسوَّد بها صحائفَ وأوراقًا.

❋ الدعامة الثانية: صدق الإيمان الراسخ:

والمراد بهذا الركن أن يكون إيمانُ الداعية صادقًا وعميقًا راسخًا، بحيث يتيقَّن أنَّ الإسلام مصدرُ وحيٍ ودينُ حقٍّ، وأنَّ ما جاء به النبيُّ ﷺ من الله تعالى هو الهداية ليُخْرِج الناسَ من الظلمات إلى النور، وأنَّ الله هداه إلى دينه القويم الذي

---

(١) سبق تخريجه، انظر (ص ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الرقاق» باب قول النبيِّ ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» (٦٤١٦) من قول ابن عمر ﷺ وقد مضى في الهامش قبله.

لا يقبل دينًا غيرَه وأمَرَه بالدعوة إليه.

فهذا الرسوخ في الإيمان العميق مؤسَّسٌ على علمٍ قطعيٍّ وبيِّنةٍ ثابتةٍ مستمَدَّةٍ من الإسلام ذاته ومستوحاةٍ من مقاصده ومراميه، فيمنعه من قَبول أيِّ تحوُّلٍ عمَّا تيقَّنه أو أدنى شكٍّ أو مساومةٍ فيما آمن به واعتقده، بل يَعتبر صاحبُه أنَّ أيَّ انحرافٍ عنه ضلالٌ واتِّباعٌ للهوى، وقد جاء في التنزيل قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأنعام]، أمَّا من تتخطَّفه الشُّبَهُ وتؤثِّر فيه الشكوكُ أو يضطرب إذا ما صادفتْه محنةٌ أو عارضتْه فتنةٌ أو شدَّةٌ؛ فهذا مرتابٌ ضعيف الإيمان سريعُ الميلان متقلِّبٌ أشْبَهُ بالمنافق الذي وصَفَه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج]، ذلك لأنَّ المنافق يدخل في الدين على طَرَفٍ، فإن وجد ما يُحِبُّه ويُصلح له دنياه أقام العبادةَ واستقرَّ عليها، وإن وجد ما لا يُحِبُّه وتغيَّرت عليه دنياه وفسدت انقلب عن العبادة وصَرَفَ نفْسَه عنها، فإن ألَمَّت به شدَّةٌ أو أصابته فتنةٌ أو محنةٌ ترك دينَه وارتدَّ عنه، فلا هو حصل من الدنيا على شيءٍ، وأمَّا في الآخرة فهو في غاية الشقاء والإهانة[1].

وهذا الإيمان الراسخ ضروريٌّ للداعي إلى الله تعالى، فإنه يثبِّته اللهُ به على الحقِّ اليقين، فلا يتحوَّل عنه مهما لاقى من فتنٍ ومحنٍ، ولا يتأثَّر إيمانُه الصادق

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٠٩).

العميق ولا يزول بأيِّ سببٍ خارجيٍّ مهما كان نوعُه وطبيعته، سواءً اجتمعت عليه قوى الشرِّ والفساد أو اقترنت شبهات المضلِّين بخوارق العادات، أو انصرف عنه الناس ولم يستجب له إلاَّ القليلُ أو تركوه جميعًا، فإنه لا يضعف أمام الجبهات المؤذية ولا للكثرة المعادية، وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن نوحٍ ﷺ أنه لبث في قومه ألْفَ سنةٍ إلاَّ خمسين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده ولم يؤمن معه إلاَّ قليلٌ، ومع ذلك لم يتسرَّبْ إلى صفاء قلبه كدرُ الشكِّ والارتياب، بل بقي قائمًا بالحقِّ ثابتًا عليه وموصولاً به يدعو إليه، فكذلك الداعيةُ المسلم ينبغي أن لا يتزعزع إيمانه الراسخ بما هو عليه حالُ الأمَّة وضعْفُ كلمة الإسلام فيها، ولا تُدْهِشَه صولةُ الكفَّار على المسلمين وجولُتهم، ولا تزلزلَه قذائف الباطل ومثاراتُ الشكوك والشبهاتِ على أحقِّية الإسلام وصدْقِ القرآن، سواءً من الكَفَرَة الفَجَرَة أو من أدعياء الإسلام وعلماء السوء المستترين وراء كلمة الإسلام التي ينطقونها بألسنتهم ويُبدونها في مجالسهم، ويبيِّتون مكرًا شديدًا وكيدًا عظيمًا وضلالاً مبينًا، بل الداعية إلى الله تعالى يفرح بالإسلام والقرآن، ولا يزداد بهما إلاَّ إيمانًا وتثبيتًا، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، ولا تستهويه أحوالُ وأهوالُ المتربِّصين والشانئين والمناوئين لهذا الدين ولا تُضعفه، بل على العكس تدفعه للمزيد من بَذْلِ الجهد والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى.

هذا، ولا يتخلَّف عن ذهن المتأمِّل المتفحِّص ما يولِّده الإيمان العميق الراسخ من ثمراتٍ طيِّبةٍ ولوازمَ حسنةٍ، وهي كثيرة العدد جليلة القدر، وتأتي في طليعة ثمرات الإيمان الراسخ:

الأولى: محبّة العبد لربّه ومحبّةُ ما جاء به اللهُ من العلم والعمل، وتقديمُ مرادِه على ما سواه، وهي محبّةٌ مستلزمةٌ لغاية الذلّ والخضوع، وهي أعلى الحبّ وأرفعُه قدرًا، قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وهذه المحبّة تخلّف أثرًا طيّبًا يُحسُّ العبد بحلاوته من منطلق ثلاث مقاماتٍ:

مقام التكميل: وهو كمال حبِّ الله ورسولِه، وتقديمُ محبّتهما على ما سواهما إلى أبعد الحدود والغايات.

مقام التفريق: وهو التفريق بين ما يحبُّه الله تعالى من الأقوال والأعمال والأشخاص وبين ما يُبغضه، فيحبُّ العبد ما يحبُّه ويُبغض ما يُبغضه الله.

مقام دفع الضدِّ: وهو أن يكره ما يضادُّ الإيمانَ أعظَمَ من كراهيته الإلقاءَ في النار، قال ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[1].

- وللمحبّة علاماتٌ منها:

- اتّباع الرسول ﷺ في هديه، والاقتداءُ به في سيرته وفي دعوته، وطاعتُه في أوامره، واجتنابُ نواهيه لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

---

(١) أخرجه البخاري في «الإيمان» باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في «الإيمان» (٤٣) من حديث أنس بن مالكٍ ﷺ.

ﵟاللهﵞ [آل عمران: ٣١]، وقوله تعالى: ﵟ ﵞ [الحشر: ٧]، وقوله تعالى: ﵟلَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَﵞ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﵟمَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۝٨٠ﵞ [النساء]، وقوله ﷺ: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ»(١)، وقوله ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٢).

• الشعور بالشفقة والرحمة على المؤمنين متجلِّيةً في ذلَّةٍ مشروعةٍ لقوله تعالى في صفة النبيِّ ﷺ مع أصحابه: ﵟرُحَمَاءُ بَيْنَهُمْﵞ [الفتح: ٢٩]، وبقدر ما هو ليِّنٌ رحيمٌ بالمؤمنين فهو قويٌّ على الكافرين، عزيزٌ في ظاهره وباطنه، شديدٌ لا يُحسُّ بهوانٍ أو استكانةٍ أمامهم ولا بصغارٍ في غَيْبتهم، قال تعالى: ﵟمُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِﵞ [الفتح: ٢٩].

• الجهاد في سبيل الله، وهو الاجتهاد في حصول المطالب العليا التي يُحبُّها الله من الإيمان والعمل الصالح، ودفعِ ما يُبغضه من الكفر والفسوق والعصيان، لا يردُّه عمَّا هو فيه مِن طاعة الله والدعوةِ إليه وإقامةِ الحدود ونصرةِ الحقِّ وقتالِ أعدائه والأمرِ بالمعروف والنهيِ عن المنكر، لا يردُّه عن

---

(١) أخرجه مسلم في «الحج» (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه البخاري في «الإيمان» باب: حبُّ الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في «الإيمان» (٤٤) من حديث أنسٍ ﵁.

ذلك كلَّه رادٌّ، ولا يصدُّه عنه صادٌّ، ولا يحول منه لومُ اللائمين، ولا يمنعه منه عذلُ العاذلين[1]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]، ويتبلور جهادُ الداعيةِ المبذولُ في دوام النشاط في طاعة الله والاشتغالِ بقضايا دعوته والتفكيرِ في وسائلها ودعائمها وطريقِ تحصيل الغاية منها، ويبقى حريصًا على إنجاح عمله، يُؤْثر دائمًا ما يُحبُّه محبوبُه من غير مبالاةٍ بالمشاقِّ التي تعترضه والأتعابِ التي تصيبه حتَّى يتمَّ التبليغُ والتبيينُ وتيسيرُ سُبُلِ الهداية للناس، وهو في ذلك يقدِّم المحبَّةَ الشرعية على المحبَّة الفطرية الغريزية من محبَّة الآباء والأولاد والأهل والعشيرة والأموال والأوطان، وسائرِ ملاذِّ الدنيا وحُطامها، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة].

والداعية إلى الله تعالى إن ترك موالاةَ الله بموافقته فيما يحبُّ ويكره، ولم يبذلِ الجهدَ في تحصيل ما يحبُّه الله من أنواع الطاعات وسائر الخيرات، ودفعِ ما يكرهه من الكفر والفسوق والعصيان؛ كان ذلك علامةً ظاهرةً على ضَعْفِه في تحقيق إحدى أصول العبادة وهي محبَّةُ الله تعالى.

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٧٠).

هذا، ومن لوازم تلك المحبَّة: الإكثارُ من تلاوة القرآن وذكرِ الله في جميع أحواله، بالإضافة إلى تلذُّذِه بالقيام بالطاعة على غير وجه استثقالٍ ولا استيحاشٍ، بل يتنعَّم بطاعته ويأنس بمناجاة ربِّه ويأسف على كلِّ فراغٍ ضائعٍ في غير ذكرِ الله، وعلى كلِّ وقتٍ فاته في غير طاعته، ومن لوازمها ـ أيضًا ـ أن يُؤثر ما يحبُّه الله ورسوله على ما يحبُّه هو في ظاهره وباطنه، فلا يغضبُ لنفسه، وإنما يغضب لربِّه غيرةً لله إذا ما انتُهكت محارمُه، ويحبُّ لقاءَ الله لمحبَّة المحبِّ لحبيبه، لذلك فهو لا يكره الموتَ إذا جاءه، لأنه مفتاح لقائه مع الله تعالى وطريقُ الوصول إليه.

وليس بخافٍ على الداعية إلى الله أنَّ محبَّة الله تعالى هي النافعة في الآخرة وحدها، وهي سبب كلِّ محبَّةٍ دينيةٍ أخرى: مِن محبَّة الرسول ومحبَّةِ المؤمنين، فإنها ترجع إليها لكونها مبنيَّةً عليها، فكلُّ محبَّةٍ خَلَتْ من محبَّة الله فهي دنيويةٌ لا نفْعَ فيها في الآخرة، بل عاقبتُها العداوةُ والبغضاء، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة]، قال ابن عبَّاسٍ ﷺ: المودَّة أي: المحبَّة[1]، لذلك كان من مَهمَّات الداعية إلى الله أن يدعوَ الناسَ إلى أن يبنوا علاقتَهم على محبَّة الله الجامعةِ لأنواع المحبَّة، وأن يؤسِّسوا عليها النيَّاتِ والمعتقداتِ والأقوالَ والأعمال.

الثانية: خوف العبد من ربِّه.

ومِن ثمرات الإيمان الراسخِ أن تنبعث في القلب خشيةٌ من توقُّع المكروه،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٧)، «إغاثة اللهفان» لابن القيِّم (٢/ ١٣٢).

سواءً كان متيقَّنًا أو مظنونًا، والمراد بالخوف الصيرورةُ إلى أبعدِ غاياته ومنتهى كماله، بحيث لا يخاف شيئًا أعْظَمَ من الله تعالى، ذلك لأنَّ الخوف موجِبُ الهروب إلى الله مع اقترانه بحلاوةٍ وطمأنينةٍ وسكينةٍ ومحبَّةٍ[1]، فالخوفُ عبودية القلب لا تصلح إلاَّ لله وحده، وهو شرط تحقيق الإيمان لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]، ومنشأُ خوفِ العبد من الله: علمُه بالجناية وقبحِها، وتصديقُه بوعيد الله على ارتكابها، وأنَّ عصيانه وعدمَ القيام بحقِّ الله تعالى يُفضي إلى ترتيب العقوبة عليه، كما يعلم أنَّ المعاصيَ قد تحول بينه وبين التوبة وهكذا، فازديادُ الخوف من الله والرهبةِ من حصول المكروه في نفس العبد إنما يكون بازدياد معرفته بالله وفِقْهِ عِظَم الجناية في مخالفة ربِّ البريَّة، وبالعكس ينقص الخوف من الله لِنَقْصِ معرفته به تعالى، فبحَسَبِ معرفته بالله وفِقْهِه لحجم الجريمة ونوعها تكون قوَّةُ الخوف وضَعْفُه[2]، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «وَاللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ»[3]، وقد أخبر الله تعالى أنَّ العلماء هم أخشى الناس لله تعالى، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر].

والداعي إلى الله إذا استشعر خوفَ الله أقبل على كلِّ ما أمر الله به وابتعد عن كلِّ ما نهى عنه، وأخذ الوقايةَ من كلِّ الآثام المفضية إلى العقوبات في الآخرة، وفي

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيِّم (١/ ٥١٤).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» لابن القيِّم (٤١٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٩١٢). وهو في البخاري في «الإيمان» باب قول النبيِّ ﷺ: «أَنَا أَعْلَمُكُمْ بِاللهِ» وأنَّ المعرفة فعلُ القلب (٢٠)، ولفظه: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا».

طليعة الوقايةِ تقوى الله، وعلى رأس تقوى الله الجهادُ في سبيله، ومنه الدعوة إليه.

والداعي إلى الله حتَّى يستشعرَ حلاوةَ عبادةِ الخوف من الله ينبغي أن يقترن خوفُه بذلِّه لله وخضوعِه له وانكسارِه بين يديه، ويُذعنَ لأحكام الله ويَصْدُقَ في الامتثال لطاعته، مِن غير أن يُوصله خوفُه من الله إلى سوء الظنِّ به أو القنوط من رحمته، وقد أثنى الله تعالى على أنبيائه بالخوف منه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، كما امتدح عبادَه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ۝٦١﴾ [المؤمنون].

إنَّ ازدياد خوف العبد من ربِّه ورهبته من عقابه وعذابِه يُكسبه هدىً ورحمةً، وهما من ثمرات الإيمان الراسخ ومِن لوازم الخوف من الله، كما أخبر الله تعالى بقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ۝١٥٤﴾ [الأعراف].

الثالثة: رجاء العبد ربَّه.

ومن الآثار الطيِّبة التي يُثمرها الإيمان الراسخ: الرجاء، وهو طلبُ ما عند الله تعالى من الرحمة والثوابِ والفضل والنِّعَمِ، والمطلوبُ هو كمال الرجاء وغايتُه؛ لأنَّ كلَّ فضلٍ فالله واهبُه، وكلَّ نعمةٍ فالله معطيها، فهو الصمد سبحانه المقصودُ في الحوائج، لذلك كان كمال الرجاء لا يصلح إلاَّ لله تعالى، وقد أثنى الله على أنبيائه به فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولا يتحقَّق رجاءُ المطيع في ثواب الله ورضوانِه، ولا رجاءُ التائب في عفو الله ومغفرته إلَّا باعتراف العبد بلطف الله وكرمِه وإنعامه وإحسانه، وصدقِ الرغبة فيما عند الله تعالى، والاجتهادِ في القيام بالأعمال الصالحة، والمسابقةِ في الخيرات، فتلك أسبابٌ موجِبةٌ لرحمة الله ورضوانه وتأييدِه ونصرِه، لذلك لا ينبغي لراجي رحمة ربِّه أن يقنط من رحمة الله أو ييأس من رَوْحه، فقد وعد الله تعالى عبادَه المؤمنين وعدًا صادقًا بحصول رحمته، ومَنَعهم من القنوط واليأس منها، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف].

ولا يُعَدُّ راجيًا من فرَّط في أسباب الرجاء وقصَّر في العمل الصالح أو لم تَصْدُقْ رغبتُه فيما عند الله تعالى، فهذا رجاء المتمادي في المعاصي الذي يطلب الثوابَ بلا عملٍ ولا توبةٍ تمنِّيًا وغرورًا[1].

والداعية الصادق يدفعه إيمانُه الراسخ إلى تحصيل أسباب الرحمة والتأييد والقَبول ما وَسِعَتْه قدرتُه بالوجه المطلوب شرعًا من غير تسويفٍ ولا تأخيرٍ، وهو في ذلك يرجو من الله أن يعينه في تصحيح أعماله ومساعيه، وأن يوفِّقه للاستمرار على تحصيل أسباب القَبول من غير أن يقترن بسريرته أدنى قنوطٍ أو يأسٍ، فهو يعلم أنَّ الله تعالى صادقٌ في وَعْدِه، وأنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، لذلك يؤمن إيمانًا جازمًا أنَّ وَعْدَ الله متحقِّقٌ للمؤمنين الصادقين وللدعاة العاملين بالنصر والتأييد

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيِّم (٢/ ٣٦).

والتمكينِ والثواب الجزيل، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه من ثمرات الإيمان الراسخ: محبّةٌ وخوفٌ ورجاءٌ، وهي الأصول التي تقوم عليها العبادة، ولا تتمُّ العبادة إلاَّ باجتماعها جميعًا في قلب المؤمن الصادقِ مقرونةً بلوازمها، لذلك فكلُّ داعيةٍ يدَّعي محبّةَ الله والخوفَ منه ورجاءَه ثمَّ لم يُذْعِنْ لأحكام الله وأوامره ونواهيه على وجه الذلِّ والخضوع فهو مبطلٌ منحرفٌ عن سواء السبيل، وأيُّ انفرادٍ بإحدى العبادات الثلاث في قلب العبد قد يحصل له من جرَّاء تخلُّف بعضِها خطأٌ في مسلكه العقديِّ والدعويِّ، وقد أفصح بعضُ السلف عن هذا المعنى بقوله: «من عبد الله بالحبِّ وحده فهو زنديقٌ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئٌ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريٌّ، ومن عبده بالحبِّ والخوف والرجاء فهو مؤمنٌ موحِّدٌ»(١).

❋ الدعامة الثالثة: الاعتماد القلبي الموصول بالله.

والمراد بالاعتماد القلبيِّ أن يفوِّض الداعية أمْرَ الدعوة ولواحقَها من النصر والتأييد والتمكين إلى مولاه وناصره، ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ۝١٥٠﴾ [آل عمران]، ويعتمدَ عليه سبحانه في تحصيل هذه المطالب العالية، يسعى

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٠/ ٨١، ٢٠٧، ١١/ ٣٩٠، ١٥/ ٢١)، «معارج القبول» للحكمي (٢/ ٤٣٧).

لتحقيقها والظَّفَرِ بها، فهو يدين الله بالتوكُّل عليه والاطِّراح الكامل بين يديه، فالتوكُّل المطلق على الله تعالى هو جزءٌ من عقيدة المؤمن، لا يجوز ـ بحالٍ ـ أن يكون لغيره، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠ وفي غيرها]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة].

ولا ينبغي للداعية أن يفهم التوكُّلَ بمعنى التواكل أو كلمةً يلوك بها لسانه دون فهمٍ لمعناها أو وعيٍ لمرماها، فينبذَ الأسبابَ ويتركَ العمل، ويقنعَ بالهُون والدُّون، ويرضى بما تجري به الأقدار تحت مبدإ التوكُّل على الله، فمجرَّدُ الظنِّ بأنَّ التوكُّل يُغني عن الأسباب المطلوبة ضلالٌ، فهو ظنُّ خصوم العقيدة والمحجوبين بمعاصيهم، وإنما الداعية المؤمن يوثِّق الصلةَ بربِّه بالطاعة والتقوى، ويعمِّق الرباطَ بالتوكُّل عليه وتفويضِ أعماله الدعوية وسائرِ شؤونه إليه، وذلك بإعداد الأسباب المطلوبة لها، وتسخيرِ طاقته في إحضارها، واستفراغ وُسْعِه في إكمالها، فيعملُ ولا يَعْجَز ولا يَكْسَل، ويحرِصُ على ما ينفعه، فإنَّ العجْزَ والكسل خُلُقان ذميمان استعاذ منهما رسولُ الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ»(١)، وأوصى بالعمل والحرص فقال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجَزْ»(٢)، مع اعتقاده الجازم أنَّ تحصيل الأسباب والسعيَ إلى إيجادها فيما أمَرَه الله

---

(١) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» باب ما يُتعوَّذ من الجبن (٢٨٢٣)، ومسلم في «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» (٢٧٠٦) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في «القدر» (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

به عبادةٌ لله وطاعةٌ له، واللهُ تعالى فَرَضَ على العباد أن يعبدوه ويتوكَّلوا عليه، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، والعبد لا يكون مطيعًا لله إلاَّ بفعل ما أَمَر به الله تعالى وتركِ ما نهى عنه، ويدخل التوكُّل في هذا المعنى من الإنابة إلى الله والمتاب إليه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [الرعد]، وقال الله تعالى عن شعيبٍ عليه السلام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾ [هود].

فالداعية يؤمن بأنَّ الأسباب ليست بمفردها كفيلةً بإنجاح المساعي وتحصيلِ المبتغى وتحقيقِ الأمل، فإنَّ الاعتماد عليها لوحدها ينافي التوحيد، وإهمالَها مع القدرة على إحضارها وإعدادِها فسقٌ ومعصيةٌ، وإنما يتعلَّق قلبُه بخالق الأسباب ومُوجدها، فيَكِلُ الداعيةُ أمْرَه إليه في تحصيل النتائج والفوزِ بالرغائب دون الخَلْق الذين لا يملكون لأنفُسِهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًّا، قال ابن تيمية رحمه الله: «فالالتفات إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحوُ الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، والإعراضُ عن الأسباب المأمورِ بها قدحٌ في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبُه معتمِدًا على الله لا على سببٍ من الأسباب، والله ييسِّر له من الأسباب ما يُصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورةً له وهو مأمورٌ بها فَعَلَها مع التوكُّل على الله: كما يؤدِّي الفرائضَ وكما يجاهد العدوَّ ويحمل السلاحَ ويلْبَس جُنَّةَ الحرب، ولا يكتفي في دفعِ العدوِّ على مجرَّد توكُّله بدون أن يفعل ما أُمر به من

الجهاد، ومَن ترك الأسبابَ المأمورَ بها فهو عاجزٌ مفرِّطٌ مذمومٌ»[1].

وكذلك كان التعليم النبويُّ، فقد كان رسول الله ﷺ يجمع بين الأسباب الإيمانية والماديَّة في معاركه وقتاله، فلا يخوض حربًا حتَّى يُعِدَّ لها عُدَّتها ويهيِّئ لها أسبابها، فيرسمُ الخطَّة وينظِّم الصفوفَ ويختار الزمنَ والمكانَ المناسبَيْن، إذ نظام الأسباب من السنن الكونية لا ينافي التوكُّل، بل هي أسبابٌ مأمورٌ بها شرعًا لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والإعراضُ عنها قدحٌ في الشرع، وكان ﷺ لا يُعلِّق نصْرَه إلاَّ على الله ولا يُنيط فلاحَه وفوزَه إلاَّ بمشيئة مولاه، فيرفع يديه ﷺ سائلاً اللهَ تعالى النصرَ والتمكينَ بقوله: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»[2].

فالداعية إذا ما استمدَّ نظرتَه إلى الأسباب من روح الإسلام ومِن هدي سيِّد الأنام عليه الصلاةُ والسلام؛ تيقَّن أنَّ التوكُّل على الله عملٌ وأملٌ، وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ الله لا يضيع ﴿أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف]، وأنَّ ﴿اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل]، وكلَّما ازداد تعلُّقه بخالقه ورازقِه ومولاه وناصرِه أكسبه قربًا وتأييدًا، وزاده رفعةً وتمجيدًا، وكفاه ما يريد

---

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٥٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» باب: كان النبيُّ ﷺ إذا لم يقاتل أوَّل النهار أخَّر القتالَ حتى تزول الشمس (٢٩٦٦)، ومسلم في «الجهاد والسير» (١٧٤٢) من حديث عبد الله ابن أبي أوفى ﷺ.

وحقَّق له ما يصبو إليه من عزٍّ وكمالٍ، فينال به الرغائب، ويحصل به على المطالب، ويحفظه من المصائب، ويدافع عنه ويؤيِّده ويمكِّن له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج].

وعلى الداعية أن يتيقَّن أنَّ نصْرَ الله لعباده المؤمنين وعوْنَه لهم وانتقامَه ممَّن حادَّهم أو شاقَّهم أو آذاهم أو كذَّبهم في دعوتهم أو نفَّر الناسَ عنهم وصدَّهم عن دعوة الحقِّ وعن هدايتهم لهم إلى صراطٍ مستقيمٍ آتٍ في الحياة الدنيا لا محالةَ، سواءٌ كان ذلك بحضرتهم أو في غَيْبَتِهم أو بعد موتهم، ونصرُ الله يوم القيامة حاصلٌ يشهده الملائكةُ والأنبياء والمؤمنون على أُممهم المكذِّبة[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، قال ابن كثيرٍ رحمه الله: «المراد بالنصر الانتصارُ لهم ممَّن آذاهم، وسواءٌ كان ذلك بحضرتهم أو في غَيْبَتِهم أو بعد موتهم كما فَعَلَ بقَتَلَة يحيى وزكريا وشعْيَا: سلَّط عليهم من أعدائهم مَن أهانهم وسَفَك دماءَهم ... وأمَّا الذين راموا صلْبَ المسيح عليه السلام من اليهود فسلَّط الله تعالى عليهم الرومَ فأهانوهم وأذلُّوهم، وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثمَّ قبل يومِ القيامة سينزل عيسى ابنُ مريم عليه الصلاة والسلام إمامًا عادلاً وحَكَمًا مُقْسِطًا، فيقتل المسيحَ الدجَّال وجنودَه من اليهود، ويقتل الخنزيرَ ويكسر الصليب،

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري (٢٤/ ٧٤).

ويضع الجزيةَ فلا يقبل إلاَّ الإسلامَ، وهذه نصرةٌ عظيمةٌ وهذه سنَّة الله تعالى في خَلْقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عبادَه المؤمنين في الدنيا ويُقِرُّ أعينَهم ممَّن آذاهم.

ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالحَرْبِ»[1]، وفي الحديث الآخر: «إِنِّي لَأَثْأَرُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَثْأَرُ اللَّيْثُ الحَرِبُ»[2]، ولهذا أهلك الله عزَّ وجلَّ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابَ الرسِّ وقومَ لوطٍ وأهلَ مَدْيَنَ وأشباهَهم وأضرابَهم ممَّن كذَّب الرسلَ وخالف الحقَّ، وأنجى الله تعالى مِن بينهم المؤمنين فلم يُهلك منهم أحدًا، وعذَّب الكافرين فلم يُفْلِتْ منهم أحدًا.

قال السُّدِّيُّ: لم يبعث اللهُ عزَّ وجلَّ رسولاً قطُّ إلى قومٍ فيقتلونه، أو قومًا من المؤمنين يَدْعون إلى الحقِّ فيُقتلون، فيذهب ذلك القرن حتَّى يبعثَ الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم، فيطلبُ بدمائهم ممَّن فَعَلَ ذلك بهم في الدنيا. قال: فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقْتَلون في الدنيا وهُم منصورون فيها. وهكذا نَصَرَ الله نبيَّه محمَّدًا ﷺ وأصحابَه على من خالفه وناوأه وكذَّبه وعاداه، فجعل كلمتَه هي العليا، ودينَه هو الظاهرَ على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهرانَيْ قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ثمَّ منحه أكتافَ المشركين يومَ بدرٍ فنصره

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦٣٩٥)، وأخرجه البخاري في «الرقاق» باب التواضع (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، ولفظ البخاري: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ».

(٢) أخرجه البغوي في «شرح السنَّة» (١٢٤٩) بلفظ: «وَإِنِّي لَأَغْضَبُ لِأَوْلِيَائِي كَمَا يَغْضَبُ اللَّيْثُ الحَرِدُ»، وضعَّف الألبانيُّ إسنادَه في «السلسلة الضعيفة» (٤/ ٢٥٦).

عليهم وخَذْلَهم له، وقتل صناديدَهم وأسَر سَرَاتَهم، فاستاقهم مقرَّنين في الأصفاد، ثمَّ منَّ عليهم بأخْذِه الفداءَ منهم، ثمَّ بعد مدَّةٍ قريبةٍ فتح عليه مكَّةَ فقرَّت عينُه ببلده وهو البلد المحرَّم الحرام المشرَّف المعظَّم، فأنقذه الله تعالى به ممَّا كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمنَ ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثمَّ قبضه الله تعالى إليه لِما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله تبارك وتعالى أصحابَه خلفاءَ بعده، فبلَّغوا عنه دينَ الله عزَّ وجلَّ ودعَوْا عبادَ الله تعالى إلى الله جلَّ وعلا، وفتحوا البلادَ والرساتيقَ[1] والأقاليمَ والمدائنَ والقرى والقلوبَ، حتَّى انتشرت الدعوة المحمَّدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثمَّ لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر] أي: يومَ القيامة تكون النصرةُ أعظمَ وأكبرَ وأجلَّ»[2].

هذا، وقلب الداعيةِ الموصولُ بالله المعتمدُ عليه المقتدي بالهدي النبويِّ والمؤتسي بالتعليم المحمَّديِّ يشعر بحلاوة الإيمان ويُحسُّ بعزَّة الإسلام، ويَعْظُمُ في نفسه الحقُّ وحُبُّ أهله، ويصغر في عينيه الباطلُ ورُوَّاده، فيُنتزع من قلبه مخافةُ

---

(١) الرزتاق والرُّستاق واحدٌ، فارسيٌّ معربٌ، ألحقوه بقرطاسٍ، ويقال: رزداقٌ ورستاقٌ، والجمع الرساتيق، وهي السواد، انظر: «لسان العرب» (١٠/ ١١٦)، وقال في باب «خلف»: (٩/ ٨٤): «قال ابن بري: المخاليف لأهل اليمن كالأجناد لأهل الشام، والكُوَرِ لأهل العراق، والرساتيق لأهل الجبال، والطساسيج لأهل الأهواز».

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٧٣ ـ ٨٤).

الناس ويحتمل أذاهم في ذات الله، فلا يضرُّه فِعالُ المبطلين الصادِّين، ولا يخشى كيدَ الكائدين والحاسدين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران].

فهذه ـ إذن ـ الدعائم الإيمانية للداعية، وهي مقوِّماتُ زادِه في الدعوة إلى الله تعالى، وكلَّما قويت معانيها في نفس الداعية كانت علامةً ظاهرةً على عُمْقِ إيمانه وصحَّةِ منهجه وصدقِ دعوته، سالكًا فيها درْبَ العلماء العاملين، وماضيًا فيها على سنن المرسلين والصدِّيقين.

في أخلاق الداعية وأولويات دعوته

إنَّ الإسلام نوَّه بالخلق الحسن، ودعا إلى غرسه وتنميته في نفوس المسلمين، وأكَّده في غير ما موضعٍ حيث جعل الله تعالى الأخلاقَ الفاضلة سببَ تحصيل الجنَّة الموعود بها ونيلها في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]، كما أوجب التخلُّق بالخلق الحسن، وجعل له أثرًا طيبًا ينعكس على المعاملات بالإيجاب، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت]، كما اعتبر الشرع الخُلُقَ من أفضل الأعمال وجعل البرَّ فيه، وأثنى على نبيِّه ﷺ بذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم]، وبعثه الله تعالى لإكمال هذه الأخلاق كما في قوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[1]، وبيَّن

---

(١) أخرجه أحمد (٨٩٥٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٧٣)، والبزَّار في «مسنده» ـ واللفاظ له ـ (٨٩٤٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ١١٢) رقم: (٤٥).

ﷺ أنَّ: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ»(١)، وقال: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا»(٢)، وقال: «أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»(٣).

هذا، ولمَّا أثنى الله تعالى على نبيِّه بحسن الخلق وبعثه لإتمام مكارم الأخلاق، وكان النبيُّ المثلَ الأعلى للدعاة في حياتهم الخاصَّة والعامَّة؛ كان الذي ينبغي على الداعية التأسِّي به ﷺ، وتجريدُ المتابعة له ﷺ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، واتِّخاذه ﷺ قدوةً وأُسوةً هو مطلوبٌ على عمومِ وأعيان المسلمين، ليس لهم في ذلك وُسْعٌ ولا خِيَرَةٌ، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فأمرُه في حقِّ الدعاة أَوْكَدُ، لأنَّ رسالتهم الدعوة إلى هديه ﷺ ومنهجه وطريقته، بعد اقتفاء أثره وتَرسُّم خُطاه والاستضاءة بالهدي النبوي، إذ هو سبيل النجاة من كلِّ شرٍّ، والفوز بكلِّ خيرٍ، وقد جعله الله تعالى المبلِّغَ والسراج والهاديَ، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝٤٦﴾ [الأحزاب]، ولا يخفى أنَّ الناس يترقَّبون أفعال الدعاة وسيرتهم، ويَرَوْن

---

(١) أخرجه مسلم في «البرِّ والصلة» (٢٥٥٣) من حديث النوَّاس بن سمعان ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي في «البر والصلة» باب ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨)، من حديث جابرٍ ﷺ، والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٤١٨) رقم: (٧٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنَّة» باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢)، والترمذي في «الرضاع» باب ما جاء في حقِّ المرأة على زوجها (١١٦٢)، من حديث أبي هريرة ﷺ. والحديث حسنٌ صحيحٌ، انظر «السلسلة الصحيحة» للألباني (١/ ٥٧٣) رقم: (٢٨٤).

فيها تطبيقًا عمليًّا حيًّا لِمَا يدعون إليه بما علموه وعملوا به بالبيان والقدوة، فإن لم يسلكوا هذا المنهج ـ وهو منهج الرشد والهداية والمستضاء به في ظلمات الجهل والغواية ـ فقد ضلُّوا وأضلُّوا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

هذا، ومن أَوْلى مهمَّات الداعي إلى الله تعالى التأسِّي بالنبيِّ ﷺ في تزكية نفسه إلى درجة الانقياد والخضوع المطلق لله عزَّ وجلَّ في كلِّ مطلوبٍ ومأمورٍ، بأداء العبادات المفروضة والمستحبَّة، سواءً كانت بدنيةً أو ماليةً، وختمِ القرآن تلاوةً وتدبُّرًا وتأمُّلًا وتفكُّرًا على الأقلِّ مرَّةً كلَّ شهرٍ، والإكثار من الاستغفار وذكرِ الله ليكون جزءًا من حياة الداعي ليتَّصف بالمسارعين بالخيرات وأهل التقوى والصلاح الموصوفين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فضلًا عن الإتيان ببقيَّة الأعمال الصالحة التي تزكو النفسُ بها وتتهذَّب غرائزُها وتصفو مداركُها؛ كَبِرِّ الوالدين، وصلة الرحم، وخدمة المستضعفين والمساكين، وتفقُّد حاجات المعوزين مع التواضع لهم، وغيرها من أنواع الطاعات، ذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ كان يتحنَّث في الغار الليالِيَ ذواتِ العدد[1]، يخلو بربِّه ويناجيه، وكان بعد مبعثه أتقى الناس وأزكاهم نفسًا وأحسنهم أخلاقًا وأتقاهم سريرةً وأعبدهم لله تعالى.

---

(١) انظر الحديث الذي أخرجه البخاري في «بدء الوحي» باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في «الإيمان» (١٦٠)، من حديث عائشة ﷺ.

ثمَّ يلي في الأولوية متابعة النبيِّ ﷺ في منهجه الأخلاقي والتأسِّي به فيه، وقد قدَّمْنا أنَّ النبيَّ ﷺ كان على خُلُقٍ عظيمٍ بشهادة ربِّ العالمين، حيث تجلَّت فيه سائر نعوت الجمال والجلال والكمال، من الإخلاص والأمانة والبرِّ والحكمة والحلم والرحمة والرفق والتواضع والصدق والإيثار والوفاء وغيرها، كما أنَّ في شريعته من الشدَّة والعزَّة والجهاد على أعداء الله وإقامة الحدود على الظالمين ما لا يخفى، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقُرِئت: ﴿مِنْ أَنفَسِكُمْ﴾، بفتح (الفاء)، ويكون مراده من أفضلكم خُلُقًا، وأشرفكم نسبًا، وأكثركم طاعةً لله تعالى، قال ابن تيمية رحمه الله: «ففي شريعته ﷺ من اللين والعفو والصفح ومكارم الأخلاق أعظمُ ممَّا في الإنجيل، وفيها من الشدَّة والجهاد وإقامة الحدود على الكفَّار والمنافقين أعظمُ ممَّا في التوراة، وهذا هو غاية الكمال؛ ولهذا قال بعضهم: بُعث موسى بالجلال، وبُعث عيسى بالجمال، وبُعث محمَّدٌ بالكمال»[1]، وقال: «وقد ذكر نعت المحبَّين في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]، فنعت المحبَّين المحبوبين بوصف الكمال الذي نعت الله به رسوله الجامع بين معنى الجلال والجمال المفرَّق في الملَّتين قبلنا: وهو الشدَّة والعزَّة على أعداء الله، والذلَّة والرحمة لأولياء الله ورسوله»[2].

---

(١) «الجواب الصحيح» لابن تيمية (٥/ ٨٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢/ ٤٥٤).

ومن الأخلاق التي ينبغي على الداعي التحلِّي بها متابعةُ النبيِّ ﷺ في الحياء الذي له الأثر البالغ على مسار الدعوة إلى الله تعالى لِما يؤدِّي إليه هذا الخلق الرفيع من سلامة الطبع من الأمراض النفسية المفسدة، ومن الأحقاد والضغائن المهلكة، فقد كان النبيُّ ﷺ «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ»(١).

ومن أخلاق الداعية إلى الله الانضباط بالخلق الذي وصف الله تعالى جانبًا منه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران]، وفي الحديث: «لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»(٢).

ومن الأخلاق اهتمامُ الداعي إلى الله بالهدي الظاهري شكلًا وهيئةً بحيث يتناسق الشكل على وجه الجلال والشرف، مع نظافة الثياب والبدن، فقد أخرج البخاري ومسلمٌ من حديث أنسٍ ﷺ أنه قال: «مَا مَسِسْتُ حَرِيرًا وَلَا دِيبَاجًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ رِيحًا قَطُّ ـ أَوْ عَرْفًا قَطُّ ـ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ

---

(١) أخرجه البخاري في «المناقب» باب صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٦٢)، ومسلم في «الفضائل» (٢٣٢٠)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في «المناقب» باب صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٥٩)، ومسلم في «الفضائل» (٢٣٢١) من حديث عبد الله بن عمرٍو ﷺ.

ـ أَوْ عَرْفِ ـ النَّبِيِّ ﷺ»[1].

ومن أصول الأخلاق إيثارُ الحِلْم وتركُ الغضب المذموم الذي يكون حميَّةً أو انتصارًا للنفس وغيرها، مِمَّا لا يكون في ذات الله، وقد وصف الله تعالى الكاظمين الغيظَ بأحسن وصفٍ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران]، ذلك لأنَّ من استطاع قَهْرَ نفسه وغَلَبَتَها كانت دعوة غيره أسهل وأيسر، قال عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ»[2].

هذا كلُّه فيما يمَسُّ حياته الخاصَّة، أمَّا حرمات الله تعالى فلا ينبغي أن يتهاون فيها أو يتساهل[3]، كما في حديث عائشة ﵂ قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ فَيَنْتَقِمَ للهِ بِهَا»[4].

هذا، ومَن تَحلَّى بمثل هذه الأخلاق السامية التي تُمثِّل عماد الدعوة في جانبها

---

(١) أخرجه البخاري في «المناقب» باب صفة النبيِّ ﷺ (٣٥٦١)، ومسلم في «الفضائل» رقم (٢٣٣٠) من حديث أنس بن مالك ﵁.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب» باب الحذر من الغضب (٦١١٤)، ومسلم في «البرِّ والصلة» رقم (٢٦٠٩) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٣) وفي هذا المعنى بوَّب البخاري (٣/ ٢٣٧) باب ما يجوز من الغضب والشدَّة لأمر الله تعالى.

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) في «المناقب» باب صفة النبيِّ ﷺ، ومسلم في «الفضائل» رقم (٢٣٢٧)، من حديث عائشة ﵂.

العملي، المفسِّر للجانب البياني أصلح الله به الناس، وعمَّ خيره، وانحسر شرُّه.

ولا يخفى أنَّ الدعوة الراشدة لا تكون مثمرةً إلَّا إذا توافقت مع الهدي النبوي، ذلك لأنَّ أسلوبه ومنهجه في الدعوة أكمل أسلوبٍ وأتمُّ منهجٍ، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

والأسلوب النبويُّ في الدعوة كان مؤسَّسًا على توحيد الله عزَّ وجلَّ، ومحاربة مظاهر الشرك وأشكال الخرافة وأنماط البدع، لتمكين العقيدة السليمة والصحيحة من الانتشار على نحو ما فهمها السلف الصالح، تحقيقًا لعبودية الله وحده لا شريك له، لذلك كان **موضوع العقيدة تعليمًا وتصحيحًا وترسيخًا من أَوْلى الأولويات وأسمى المهمَّات** التي يجب على الداعي إعطاؤها العنايةَ الكافية التي تستحقُّها؛ كما ينبغي أن يكون أسلوب الدعوة في نهجه أن يرسم الداعي إلى الله الطريقَ القويم لكلِّ مخطئٍ أو منحرفٍ على وجه الشمول لتعمَّ فائدته ونفعُه، وهو جليٌّ في نصائحه ﷺ وخطاباته ودعوته كما في قوله ﷺ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ ؟!...»[1]، وقوله: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ؟!»[2]، وكان النبيُّ ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيءُ لم يقل: ما

---

(١) أخرجه البخاري في «الشروط» باب المكاتب وما لا يحلُّ من الشروط التي تخالف كتابَ الله (٢٧٣٥)، ومسلم في «العتق» (١٥٠٤)، من حديث عائشة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في «صفة الصلاة» باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة (٧٥٠)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

بال فلانٍ يقول، ولكن يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا»[1]، إذ هذا الأسلوب أبعد عن الانفعال والأنفة والاعتزاز بالرأي عند عدم جدواه وهو إلى استصلاح الحال أقرب.

ومن الأسلوب الدعوي الرفقُ الذي ينبغي أن يتحلَّى به الدعاة إلى الله تعالى ويجانب العنف والشدَّة والفظاظة، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»[2]، وقال ـ أيضًا ـ: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[3]، وفي الحديث: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»[4]، فالرفق في الأسلوب من أبرز خصائص دعوة الحقِّ، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وينبغي على الداعي إلى الله ـ فضلًا عن الرفق ـ التعاملُ مع ما يمَسُّ الدينَ منهجًا وعقيدةً بحزمٍ وثباتٍ؛ لأنَّ التهاون واللين يترتَّب عليه ضياعُ معالم الدين وفسادُ الأخلاق، ويدلُّ على ذلك حزمُه ﷺ في امتناعه على وفد ثقيف أن يَدَعَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٨٨) في «الأدب» بابٌ في حسن العشرة، من حديث عائشة ﵂، والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٩٧) رقم: (٢٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب» باب الرفق في الأمر كلِّه (٦٠٢٤)، ومسلم في «السلام» (٢١٦٥)، من حديث عائشة ﵂.

(٣) أخرجه مسلم في «البرِّ والصلة» (٢٥٩٤) من حديث عائشة ﵂.

(٤) أخرجه مسلم في «البرِّ والصلة» (٢٥٩٣) من حديث عائشة ﵂.

لهم اللَّات لا يهدِّمها ثلاثَ سنين، وهدمها، كما أبى أن يُعْفِيَهم من الصلاة ومن الصدقة والجهاد[1].

هذا؛ والذي يُطلب من الإمام أو الخطيب أن يكون على بصيرةٍ في المجال الدعوي من علمٍ دقيقٍ بالشرع ومقاصده ومراميه مع الرباط الوثيق بالله تعالى والصلة به، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، فأهل البصيرة هم أولو الألباب، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر]، والآية تصف أهلَ اليقين والفطنة وسَعَة الإدراك والكياسة بحصول العلم لهم بالاستماع، وتحصل لهم الهداية والتوفيق باتِّباع أحسن القول، وهو الإسلام بلوازمه من أمرٍ ونهيٍ، ترغيبًا في الخير الذي هو سبيل النجاة، وترهيبًا من الشرِّ الذي هو سبيل الهلاك والدمار والعذاب، وبحصول هذه المرتبة يُوصل المتبصِّر دعوته إلى غيره متيقِّنًا بمراميها النبيلة التي مدارُها إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد، ومن ظلمات الشرك إلى نور التوحيد والإيمان، تعلو به إلى مدارج الكمال المنشود.

وعليه؛ فإنَّ البصيرة التي يكون عليها الداعية لا تُطْلَق على العلم وحده ما لم يؤازره تصديقٌ وعملٌ وتقوى، فيتجسَّد علمُه بمعرفة الدين ومراتبه الثلاث من إحسانٍ وإيمانٍ وإسلامٍ، ويتفاعل معها عملًا ودعوةً، متخلِّقًا بأخلاق الدعاة،

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيِّم (٣/ ٥٩٥) وما بعدها.

متبصِّرًا بأحوال المدعوِّين وعوائدهم وطباعهم وأعرافهم، منتهجًا معهم الأسلوبَ النبويَّ في الدعوة إلى الله على ما تقدَّم، مع الإحاطة بالمقاصد العليا للدعوة الإسلامية، وإذا كانت دعوته مؤسَّسةً على ضوء هدي الكتاب والسنَّة حاز قصب السبق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت]، ونال رتبةَ المستنيرين بنور الله، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

هذا؛ وعلى الداعي إلى الله التحلِّي بالصبر، وهو من الأهمِّية بمكانٍ في مسيرة الدعوة والدعاة خاصَّةً، إذ «بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين»، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ مستدلًّا بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنَّ أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى]، وصبرُ الدعاة على البلاء الذي يصيبهم هو من عزائم الأمور، لأنه صبرٌ على استكبار الجاحدين وجفوة العصاة، وعَنَتِ المدعوِّين، وهو من علامات أهل الصلاح المتَّقين، وهو يشمل الصبرَ على الطاعة وعن المعصية وعلى أذى الناس وعلى الأقدار، ولقد واجه النبيُّ ﷺ كلَّ أشكال الصدود والفجور، وكلَّ ألوان الكنود[1] والجحود، فصبر عليها وصابر ورابط

(١) الكُنود: كُفر النعمة، يقال: كَنَدَ يكنُد كُنودًا فهو كَنودٌ [انظر: «لسان العرب» (٣/ ٣٨١)].

حتَّى أتمَّ اللهُ به دعوتَه، وانتشرت في الآفاق.

فالصبر ـ إذن ـ له أثرُه البالغ والحسن في نجاح مهمَّة الداعي بتوجيه الناس إلى الخير والرشد والسؤدد، لذا عليه أن يتحمَّل ما يواجهه من كنود الناس وصدودهم وما يحاك ضدَّه في سبيل صدِّه أو عرقلته ومنعِه سبيلَ الله، أو ما يُنشر حوله من إشاعاتٍ وأكاذيبَ واتِّهاماتٍ، ويُكاد له من دسائسَ، قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم].

وفي الأخير؛ فالواجب على الدعاة في مسيرتهم الدعوية أن يبتعدوا عن الجفوة والغلظة وسوء الأدب والتحوُّل عن الأخلاق والانقلاب عن المبادئ والثوابت، وأن يتنزَّهوا عن الأغراض الدنيئة والاغترار بالدنيا، لأنَّ الانشغال والتلهِّيَ بها عن الآخرة أوَّل طريق الضياع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون].

كما عليهم التنزُّه عن المقاصد الشخصية التي تصاحب الجفاةَ الغلاظ، الذين تحمل دعوتهم في ثناياها من تجهيلٍ وتجريحٍ وتشهيرٍ وتعييرٍ، بل وتكفيرٍ، فإنَّ مرض حبِّ الظهور والإهانة والتشفِّي خلقٌ ذميمٌ ورذيلةٌ لا تتوافق مع الخلق الرقيق؛ فقد كان النبيُّ ﷺ أشدَّ حياءً من العذراء في خدرها، والاصطباغ بتلك الرذيلة لا يصحُّ صفةً للداعية، ولا يتشرَّف بها في سلوكه التطبيقي.

كما أنَّ من وقائع حالنا أن يتصدَّى للدعوة أفرادٌ بعلمٍ ناقصٍ أو بدون علمٍ، بل دون تأهُّلٍ ولا تأهُّبٍ، وبلا زكاة نفسٍ وتربيةٍ ولا مجاهدةٍ، فيَدْعون إلى الإسلام

ـ زعموا ـ دعوةً وهم بحاجةٍ إلى دعوةٍ، ومن أصيب بمثل هذه الأمراض فهو ظلومٌ جهولٌ يُدعى إلى الحقِّ ولا يدعو، ويُستصلَح ولا يُصلِح.

هذا؛ ونسأل اللهَ التوفيق والسداد، ومن وُفِّق إلى سلوك الدعوة النبوية فقهًا وتأسِّيًا فقد حاز قسطًا وافرًا من ميراث النبوَّة، نسأل اللهَ لنا ولكم أن لا يحرمنا منه.

مكمن عز الداعية وجوالب محبته

إنَّ مِنْ أعظمِ أسباب حِفظ مكانةِ الداعية إلى الله، وتعظيمِ شرفِه وعِزِّه أن يعمل على تكوين دخلٍ ماليٍّ لنفسه من مصدر رِزقٍ مُناسبٍ يدفع به حاجتَه، ويقنع بما أتاه اللهُ من فضله، ويحقِّق به الكفاف ويتعفَّف عن السؤال فيما يحتاجه في مطعمه وملبسه ومسكنِه ونحو ذلك، لا يسأل إلَّا الله تعالى، ويرغب إليه فيه، ويستغني به عن الناس، فإذا ضُمَّ المالُ إلى العِلم حَازَ الداعيةُ على الكمال والعِفَّة والقناعة، قال ﷺ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»(١)، وقد بيَّن جبريلُ عليه السلام للنبيِّ ﷺ سبيلَ عزِّ المسلم وشرفِه كما في حديث سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه، قال: جاء جبريلُ عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: «يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»(٢)؛ ذلك لأنَّ مَن زهد فيما هو عند الناس أحبُّوه ومالوا إليه، فاقتضى شرفُ الداعية أن لا يكون مستشرفًا إلى المال

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٦٥) في «الزكاة» رقم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨)، من حديث سهل بن سعدٍ رضي الله عنه. وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٤٨٣) رقم: (٨٣١).

بقلبه، ولا سائلًا له بلسانه إلَّا لضرورةٍ؛ لأنَّ الطبائع جُبِلَتْ على استثقال من أنزل بالمخلوقين حاجاتِه وطمع فيما في أيديهم، فعن سهل بن سعد ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ، فقال: يا رسول الله، دُلَّني على عملٍ إذا أنا عملته أحبَّني اللهُ وأحبَّني الناسُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ»(١)، فإنَّ الاستغناءَ عمَّا في أيدي الناس سببُ محبَّتهم، والسعيَ فيما يُكسِبُ محبَّتهم مطلوبٌ شرعًا، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(٢)، والحديثُ أرشد إلى إفشاء السلام، كما أرشدَ النبيُّ ﷺ إلى التهادي في قوله ﷺ: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»(٣)، وإنهما من جوالب المحبَّة التي تعزِّز العلاقةَ الإيمانيةَ، وتقوِّي أواصرَ التعاوُن الأخويِّ المبنيِّ على البرِّ والتقوى.

فالشَّرَهُ في جَمْعِ المال، والسؤالُ لِما في أيدي الناس يُفضي إلى الحَطِّ من شأن الداعية، وتقليلِ قيمته، واستثقالِ الناس له، والإعراضُ عن جمع المال بالاشتغال بالعلم عن الكسب يُؤدِّي إلى اضطراب عيشه، واختلالِ مَهمَّتِه الدعوية، نتيجةَ إرهاق الفاقة له، الأمرُ الذي يدفعه إلى المداهنة بسبب الفقر من أجل استقرار حاله،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «الزهد» باب الزهد في الدنيا (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعدٍ ﷺ. والحديث حسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦٢٤) رقم: (٩٤٤).

(٢) أخرجه مسلم في «الإيمان» رقم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٢٠٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٦٩)، من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسَّنه الألباني في «الإرواء» (٦/ ٤٤) رقم: (١٦٠١).

قال بعض السلف: «إنه من أغرق في الحديث فليُعِدَّ للفقر جلبابًا، فليأخذ أحدكم من الحديث بقدر الطاقة، وليحترف حَذرًا من الفاقة»[1]، لذلك ينبغي على الداعية التوسُّطُ والاعتدالُ تجاهَ المال بين الانهماك عليه وبين تركه بالكلِّيَّة، وضِمن هذا المنظور المقاصدي المعتدل يقول ابن الجوزي رحمه الله في «منفعة المال» ما نصُّه:

«ليس في الدنيا أنفع للعلماء من جمع المال للاستغناء عن الناس، فإنه إذا ضُمَّ إلى العلم حِيزَ الكمال، وإن جُمهور العلماء شَغَلَهُمُ العلمُ عن الكسب، فاحتاجوا إلى ما لا بُدَّ منه، وقلَّ الصبرُ فدخلوا مداخلَ شَانَتْهُم وإن تأوَّلوا فيها إلَّا أنَّ غَيْرَها كان أحسن لهم، ...وهؤلاء ـ وإن كانوا سلكوا طريقًا من التأويل ـ فإنهم فَقَدُوا من قلوبهم وكمال دِينهم أكثرَ ممَّا نالوا من الدنيا، ولقد رأينا جماعةً من المتصوِّفة والعلماء يَغْشَوْنَ الوُلاةَ لأجل نَيْلِ ما في أيديهم، فمنهم مَن يُداهنُ ويُراثي، ومنهم مَن يمدح بما لا يجوز، ومنهم مَن يسكت عن منكراتٍ، إلى غير ذلك من المداهنات، وسببُه الفَقْرُ، فعَلِمْنَا أنَّ كمال العِزِّ وبُعد الرِّياء إنما يكون في البُعد عن العمَّال الظَّلَمَة، ولم نَرَ من صَحَّ له هذا إلَّا في أحد الرجلين:

ـ إمَّا مَن كان له مالٌ كسعيدِ بنِ المسيَّب: كان يَتَّجِرُ في الزيت وغيرِه، وسفيانَ الثوريِّ كانت له بضائعُ، وابنِ المبارك.

ـ وإمَّا مَن كان شديدَ الصبر، قنوعًا بما رُزِقَ وإن لم يَكْفِه، كبِشْرٍ الحافي، وأحمدَ بنِ حنبلٍ.

ومتى لم يجد الإنسانُ كصبر هذين، ولا كمال أولئك، فالظاهر تقلُّبه في المحن

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٩٩).

والآفات، وربَّما تلف دينُه.

فعليك يا طالبَ العلم بالاجتهاد في جمع المال للغِنى عن الناس، فإنه يجمع لك دينَك، فما رأينا في الأغلب منافقًا في التديُّن والتزهُّد والتخشُّع ولا آفةَ طرأت على عالمٍ إلَّا بحُبِّ الدنيا، وغالبُ ذلك الفقر، فإن كان له ما يكفيه ثمَّ يطلب بتلك المخالطةِ الزيادةَ فذلك معدودٌ في أهل الشَّرَهِ، خارجٌ عن حيِّز العلماء، نعوذ بالله من تلك الأحوال»[1].

قال سفيان الثوري رحمه الله: «من كان في يده من هذه شيءٌ [أي: الدنانير] فلْيُصلحْه، فإنه زمانٌ مَن احتاج كان أوَّلَ ما يبذل دينُه»[2]، وقال رحمه الله أيضًا: «يا معشر القُرَّاء ارفعوا رؤوسَكم فقد وَضَح الطريق، واعملوا ولا تكونوا عالةً على الناس»[3].

وهكذا فعلى الداعية إلى الله، إن لم يكن له مصدر رزقٍ يغطِّي حاجتَه ونفقتَه منه، اكتسب من الحلال بقدر كفايته، وترك الغلوَّ فيه، فقد كان «سفيان الثوري إذا أتاه الرجل يطلب العلمَ سأله: هل لك وجه معيشةٍ ؟ فإن أخبره أنه في كفايةٍ أمَرَهُ بطلب العلم، وإن لم يكن في كفايةٍ أمَرَهُ بطلب المعاش»[4]. قلت: إنما ذلك تقصُّدًا ليجمع همَّه، ويُفرِّغ قلبَه، ويصون عِرْضَه عن الخلق، ويُؤدِّيَ مَهمَّتَه التربويةَ

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (١٥٤ ـ ١٥٥).

(٢) «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (٦/ ٣٨١).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٩٨).

ورسالتَه الدعويةَ مع كمال العزِّ، مُستغنيًا عمَّا في أيدي الناس، بعيدًا عن المداهنة والمراءاة، فإنَّ هذا أسلم له في العاقبة وأنفع له في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ...»[1] الحديث.

لكن «متى سَمَتْ هِمَّتُهُ إلى فضول المال وقع المحذور من التشتُّت؛ لأنَّ التشتُّت في الأوَّل للعدم، وهذا التشتُّتُ يكون للحرص على الفضول، فيذهب العُمُر على البارد:

وَمَنْ يُنْفِقِ الأَيَّامَ فِي حِفْظِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الفَقْرُ»[2]

قال ﷺ: «...وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[3].

نسأل اللهَ تعالى أن يرزقنا الهُدى والتُّقى والعفافَ والكفاف والغِنَى، وأن يجعل الآخرة هَمَّنَا، ويُقَنِّعَنَا بما آتانا، إنه على كلِّ شيءٍ قديرٌ وبالإجابة جديرٌ.

❁❁❁

(١) سبق تخريجه، انظر: (ص ١٣).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (٢٦٧).

(٣) سبق تخريجه، انظر: (ص ١٣).

أوليات الداعية إلى الله

لقد رَاجَ ـ في الآونة الأخيرة ـ على ألسنةِ مَنْ وَصَفهم النبيُّ ﷺ بـ: «حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الأَحْلَامِ»[1] نفيُ التفريق بين الجزائر وسائر بلدان الكفر، حتى إذا سُئِلَ أحدُهم عن السفر إلى بلاد الكفر فيجيب ـ من غير تُؤَدةٍ ولا تَرَوٍّ ـ: «أين أنت الآن؟» أو «بصَّرك اللهُ، وهل يوجد فَرْقٌ بين بلدان الكفر ؟ الكفر مِلَّةٌ واحدةٌ»، ونحو ذلك من من أساليب التعبير التي تتصدَّع لها القلوبُ المؤمنة، وتفزع منها النفوس المطمئنَّة، وهكذا ـ على حين غفلةٍ من أهلها ـ تتسرَّب بضائعُ الشُّبُهات والأفكار من الأغمار، ويُنَفِّقون سلعتهم ولو بالحلف الكاذب، والله المستعان.

إنَّ أَوَّلَ اهتمامات الداعية إلى الله تعالى وأعظمَها حملُ الناس على إفراد الله تعالى بالعبادة، وتركِ الشرك، وإقامةِ السُّنَّة، ونَبْذِ البدعة، وهو المنهج الشرعيُّ في جميع رسالات المرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فهذا السبيلُ الحقُّ الذي ينبغي أن يَبذُل فيه الداعيةُ جُهْدَهُ، ويَستفرِغَ طَاقَتَهُ ووقته لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، على منهج

---

(١) أخرجه البخاري في «المناقب» باب علامات النبوَّة في الإسلام (٣٦١١)، ومسلم في «الزكاة» (١٠٦٦)، من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ ﷺ.

أهل السُّنَّة الذين يَعرفون الحقَّ ويرحمون الخلقَ، لا سبيلَ التشويش بالشُّبُهات والتضليل، وحملِ الناس على التكفير ثمَّ التفجير والتدمير.

إنَّ التسويةَ بين الجزائر وبين غيرها من بلدان الكفر، كإنجلترا وفرنسا وألمانيا هي تسويةٌ مع ظهور فارقٍ شاسعٍ بين بلادٍ تَدِينُ بالإسلام، وأخرى لا تدين إلَّا بالشرك، وقراءةُ مضامين هذه العبارات تشدُّ بالَ العاقل، وتَصْرِفُ نظرَه إلى أهل «التكفير بالعموم» أو «التكفير الجماعي»، الذين يجانبون في معتقدهم أصولَ أهل السُّنَّة والجماعة، فيكفِّرون أهلَ القِبلة بمطلق المعاصي والكبائر، ويرَوْن أنَّ الأعمالَ داخلةٌ في مُسمَّى الإيمان، وأنَّها شرطٌ في بقائه، فمَنْ فعلَ معصيةً من الكبائر خرج عن الإيمان؛ ذلك لأنَّ الإيمانَ عندهم كالجُملة الواحدة لا يتبعَّضُ فإنْ ذهب بعضُه ذهب كُلُّه، فيزول بالتالي الإيمانُ جملةً بالمعاصي، فيخرج العاصي من دائرته إلى الكفر، فهذا هو أصلُ مُعتقد الخوارج.

أمَّا أهلُ السُّنَّة والجماعة فلا يُكفِّرون بمُطلق المعاصي، وإن كانوا يرون أنَّ العمل شرطٌ في صحَّة الإيمان، ويُسمُّون أهلَ القِبلة مسلمين مؤمنين، وإن كانوا عُصاةً، ما داموا بما جاء به النبيُّ ﷺ مؤمنين، وله بكلِّ ما قال وأخبر مُصدِّقين؛ ذلك لأنَّ الإيمانَ عند أهل السُّنَّة يتبعَّضُ، فإذا ذهب بعضُهُ لم يذهب كُلُّه، فيبقى مع العاصي مُطْلَقُ الإيمان لا الإيمانُ المطلَقُ، ويشهد لذلك حديث أنس بن مالكٍ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنا، وَصَلَّى صَلَاتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا؛ فَهُوَ الْمُسْلِمُ: لَهُ مَا لِلْمُسلِمِ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَى الْمُسْلِمِ»[1]، وفي روايةٍ:

---

(١) أخرجه البخاري في «الصلاة» باب فضل استقبال القبلة (٣٩٣) من حديث أنس ابن =

«مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ»[1]، أي: لا تغدروا الله في ذِمَّته، ولا تخونوه في عهده، ولا تتعرَّضوا لحقِّه من ماله ودمه وعرضه[2].

وفي الحديث دليلٌ على تحريم «التكفير الجماعي» أو «بالعموم»، وإنَّما أمور الناس محمولةٌ على الظاهر، فمَنْ أظهر شعار الإسلام أُجْرِيَتْ عليه أحكامُ أهله، ما لم يظهر منه خلافُ ذلك، كأن يُكذِّب بشيءٍ ممَّا جاء عن رسول الله ﷺ صحيحًا ثابتًا، أو يستحلَّ ما حَرَّمَهُ اللهُ تعالى، ونحو ذلك، إذ إنَّ «مَنْ ثَبَتَ إِسْلَامُهُ بِيَقِينٍ لَمْ يَزُلْ ذَلِكَ عَنْهُ بِالشَّكِّ، بَلْ لَا يَزُولُ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَإِزَالَةِ الشُّبْهَةِ»[3]، لذلك كان من أصول أهلِ السُّنَّةِ: عدمُ جواز الشهادة بالكفر والنِّفاق على أحدٍ من أهل القِبلة ما لم يظهر منه ذلك، وردُّ سرائرهم إلى الله تعالى، ذلك لأنَّا أُمرنا بالحكم بالظاهر، ونُهينا عن الظنِّ واتِّباع ما ليس لنا به علمٌ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

فمِن عيوب أهلِ البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن محاسن أهل السُّنَّة أنَّهم

= مالكٍ ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في «الصلاة» باب فضل استقبال القبلة (٣٩١) من حديث أنس ابن مالكٍ ﷺ.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٤٩٦)، «مرقاة المفاتيح» للقاري (١/ ١٥٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٢/ ٤٦٦).

يُخطِّئون ولا يُكفِّرون أحدًا من أهل القِبلة بكلِّ ذنبٍ، بل الأُخوَّة الإيمانيةُ ثابتةٌ مع المعاصي.

وإذا أظهر البلد شعارَ الدِّين، مِنَ النُّطقِ بالشهادتين، ورفعِ الأذان فيه، وإقامةِ الصلاة، واستقبالِ القِبلة، ومَكَّن أهلَهُ من أدائها أصالةً وبأمانٍ، لا معاهدةً أو اتِّفاقًا وتبعًا، فإنَّ ذلك البلد معدودٌ من ديار الإسلام عند أهل السُّنَّةِ، لا دارَ كُفْرٍ، كما رأته المعتزلةُ، ففي حديث أنس بن مالكٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا؛ فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[1].

ومنه يظهر عوارُ من لم يُفرِّقْ بين البَلَدَيْنِ، وينهدم بنيانُ من أجاز الهجرة إلى بلدان الكفر والضلال بدعوى عدم وجود دار إسلامٍ، وإرادة التماس دليلٍ شرعيٍّ لهم من الهجرة الأولى إلى الحبشة يوافق هواهم استنادًا إلى خلوِّ المرحلة المكِّية من دار الإسلام.

وعجبي لا ينقطع في الذين أرادوا حصر تطبيق المرحلة المكِّية التي كان فيها المسلمون مع النبيِّ ﷺ مستضعفين في أوَّل الإسلام في الهجرة إلى الحبشة تمسُّكًا بخلوِّ دار الإسلام ذلك الوقت، تركوا العمل بحكم المرحلة المكِّية في عصمة دم الكافر العصمةَ الأصلية، إذ دم الآدمي معصومٌ فلا يُقتل إلَّا بحقٍّ، وقد كان

---

(١) أخرجه البخاري في «الصلاة» باب فضل استقبال القبلة (٣٩٢) من حديث أنس ابن مالكٍ ﷺ.

المسلمون ممنوعين قبل الهجرة من ابتداء القتال، وكان ابتداءُ قتل الكفَّار المتَّفق على تكفيرهم مُحَرَّمًا، وهو مِن قَتْلِ النفس بغير حقٍّ، فمن بابٍ أَوْلَى العمل بهذه المرحلة في حقِّ المؤمن العاصي أو المشتبه فيه غير المُتَّفَقِ على كفره ! فَلِمَ تركوا العمل بآيات الصبر والصفح عمَّن يُؤذي اللهَ ورسولَه في حالة الضَّعف، وبآيات القتال في حالة القُوَّة جمعًا بين الأدلَّة، وهو أَوْلَى من النَّسخ المحتمل والترجيح، لانتفاء التعارض بين أحكام المرحلتين ؟!

وأصلُ هذا الكلام نابعٌ من اعتقاد الخوارج، الذين جعلوا «الحاكمية» شرطًا في الإيمان، ومعنًى للتوحيد، أي أنَّ معنى: «لا إله إلَّا الله» ـ في زعمهم ـ: «لا حاكمية إلَّا لله»، وقد انتشرت هذه الدعوة التي ابتدعَ مفهومَها ومُسمَّاها المفكِّرُ الحركيُّ: سيِّد قطب، وهي مؤلَّفةٌ بين عقيدة الإمامية(١) والبيهسية(٢). وتفسيرُ «لا

---

(١) الإمامية: فرقةٌ من فِرَق الروافض من الشيعة، يعتقدون بأنَّ عليًّا ﷺ هو الإمام، وأنَّ النبيَّ ﷺ نصَّ على إمامته نصًّا صريحًا ونصَّ كلُّ إمامٍ على من بعده: الحسن والحسين ﷺ وتسعة أئمَّةٍ من ولد الحسين، لذلك سُمُّوا بالاثني عشرية، وقد ساقوا في ذلك أحاديث موضوعةً وأدلَّةً ضعيفةً، وانقسموا على مرِّ الزمان إلى طوائف، لهم عقائد فاسدةٌ وشركياتٌ ظاهرةٌ، وبغضٌ شديدٌ للصحابة ﷺ، وغلوٌّ في أئمَّتهم ورفعُهم لهم فوق مقام الأنبياء، واستحلال الكذب بدعوى التقيَّة ومثالب أخرى. [انظر: «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي (٣٨)، «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ٢١٨)، «منهاج السنَّة النبوية» لابن تيمية (١/ ٤)].

(٢) البيهسية فرقةٌ من كبار فِرَق الخوارج، تُنسب إلى أبي بيهسٍ هيصم بن عامرٍ (أو ابن جابرٍ)، لهم معتقداتٌ فاسدةٌ منها: القول بقتل أهل القبلة وأخذِ أموالهم، وتركِ الصلاة إلَّا خلف من تعرف، والشهادة على الدار بالكفر، وأنَّ صاحب الكبيرة إن كان فيها حدٌّ فإنه لا يكفر =

إله إلَّا الله» بـ «الحاكمية لله» مخالفٌ لتفسير السلف لها ـ بلا ريبٍ ـ ومعناها عند السلف: «لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ»، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج]، وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وتفسيرُ السلف الصالح لها هو التفسيرُ الوحيد الذي لا يصحُّ تفسيرٌ غيرُه، وهو إخلاصُ العبادة لله وحدَهُ لا شريكَ له، ويدخل فيها تحكيم الشريعة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

ولا يخفى أنَّ التوحيدَ رأسُ التشريع، وهو من أَوَّليَّات الدعوة إلى الله تعالى، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]، وهو حكمٌ أَوَّليٌّ بما أنزلَ اللهُ، إذ إنَّ أَوَّلَ ما أوصى به الرسلَ والأنبياءَ نزعُ عوالق الشرك من صدور المتشبِّثين به، وتطهير أرض الله ومساجده من أدران الأوثان والأضرحة، وإبعاد فتنة القبور والمشاهد عنها، فسبيلُ الدعوة إلى الله يبدأ من التوحيد أَوَّلًا وقبل

= حتَّى يُرفع إلى الإمام، فإذا أقام عليه الحدَّ فحينئذٍ يكفر، واليهسية فِرَقٌ متعددةٌ، والعوفية منهم يرون أنه إذا كفر الإمام فقد كفرت الرعيَّة: الغائب منهم والشاهد. [انظر: «مقالات الإسلاميِّين» للأشعري (١٨١)، «الفَرْق بين الفِرَق» للبغدادي (٨٧)، «الملل والنحل» للشهرستاني (١/ ١٦٩)].

كلُّ شيءٍ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، والمراد بالآية: الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له لا شريك له، وفي حديث معاذٍ ﷺ قال له النبيُّ ﷺ لمَّا بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ...»، الحديث[1].

هذا؛ وينبني على جعل الحاكمية شرطًا في الإيمان تكفيرُ الداعي الحاكمَ الذي يخالف الحكمَ بما أنزل اللهُ مُطلقًا، وتكفير رعيَّته على حدٍّ سواءٍ ولو كانوا منكرين على الحاكم بقلوبهم وألسنتهم، وفسادُ هذا الاعتقاد ظاهرٌ؛ لأنَّ تفسير كلمة التوحيد بالحاكمية قاصرٌ على جزءٍ من توحيد الربوبية، كما يَلزم من اشتراط «الحاكمية» إخراجُ توحيد الإلهية وكثيرٍ من الأصول والأركان كالصلاة وغيرها من الحكم بما أنزل الله تعالى ومن عُرى الدِّين الذي شرع المولى عزَّ وجلَّ، فمثلُ هذا الاشتراط ناقصٌ ومخالفٌ لقوله ﷺ: «لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا: الحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ: الصَّلاَةُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «الزكاة» باب أخذِ الصدقة من الأغنياء وتُرَدُّ في الفقراء حيث كانوا (١٤٩٦) من حديث ابن عبَّاسٍ ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٢١٦٠) من حديث أبي أمامة الباهليِّ ﷺ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٧٥).

وباختصارٍ، فإنَّ ترويج بضائع الشُّبهات والأوهام من أصاغر القوم، حدثاء الأسنان الذين همُّهم التزعُّم على الرعاع، والتصدُّر على الأتباع يؤدِّي بطريقٍ أو بآخَرَ إلى مسالك التهلكة والرَّدَى، وطريقِ الغواية والهوى، وصَدَقَ رسولُ الله ﷺ حيث قال: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ العِلْمُ عِنْدَ الأَصَاغِرِ»(١)، وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا أَتَاهُمُ العِلْمُ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمِنْ أَكَابِرِهِمْ، فَإِذَا أَتَاهُمُ العِلْمُ مِنْ قِبَلِ أَصَاغِرِهِمْ، فَذَاكَ حِينَ هَلَكُوا»(٢).

فبمقدار ما يكون عليه الداعيةُ إلى الله ـ في أداء رسالته وقيامه بواجبه ـ قريبًا من منهج الأنبياء في دعوتهم وإصلاحهم بمقدار ما تؤتي دعوتُه أُكُلَها بإذن ربِّها، وتنتهج التربيةُ الوجهةَ الصحيحة، ويتجسَّدُ في أرض الواقع نورُ الإسلام المصفَّى، وبمقدار ما يبتعد عن مشكاة النُّبُوَّة يحلُّ الظلامُ، وتنتشرُ البدعةُ، ويكثرُ رُوَّادُ الضلالة.

ولله دَرُّ مَنْ قال: «إنها ستكون أمورٌ مُشْتبِهَاتٌ، فعليكم بالتُّؤَدة، فإنَّكَ أن

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٦١) وفي «الأوسط» (٨/ ١١٦)، من حديث أبي أُميَّة الجُمَحِيِّ ﷺ. والحديث صحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣٠٩) رقم: (٦٩٥).

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق في «المصنَّف» (١١/ ٢٤٦)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ١١٤) وفي «الأوسط» (٧/ ٣١١)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٢٨١)، بألفاظٍ متقاربةٍ من حديث ابن مسعودٍ ﷺ موقوفًا، قال الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٤٩): «رجاله موثوقون»، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٣١٠).

تكون تابعًا في الخير خيرٌ مِن أن تكون رأسًا في الشرِّ»[1].

واللهَ تعالى نسألُ أن يَعْصِمَنَا من الزَّلَلِ والضلالةِ، وأن يوفِّقَ الأُمَّةَ ـ حاكمًا ومحكومًا ـ لاتِّباع الحقِّ ونصرته وموالاة أهله، ويهديَ المخاصمين للحقِّ المعاندين لأهله إلى صراطه المستقيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء].

❁❁❁

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧/ ٢٩٧)، عن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ.

الشبهات المثارة في وجه الداعية إلى الله
(دوافعها وأسباب ترويجها)

العلم المتلقَّى من الوحيين هو مادَّة الدعوة وأساسها، فالداعي إلى الله تعالى الذي أمدَّه الله بالعلم النافع والعمل الصالح، المتبصِّر بحال المدعوِّين وفيما يدعو إليه يسعى ـ جاهدًا ـ إلى إيصال شرع الله تعالى إلى عباد الله بما تستوجبه أساليب الدعوة وطرق التبليغ، وفي المعترك الدعويِّ ينبغي على الداعي إلى الله أن يفكِّر ـ مليًّا ـ في عواقب دعوته، ومحيط المدعوِّين، ومآل مواقفه، وانعكاسات آثارها على الساحة الدعوية من جرَّاء شبهات المبطلين وأكاذيب المفترين المثارة في وجه الدعوة وضدَّه أو ضدَّ غيره من الدعاة إلى الله، إذ المعلوم أنَّ للحقِّ أعداءً كما أخبر الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١].

والداعي إلى الله بالمعايير الشرعية الصحيحة كلَّما اتَّسعت دائرة تأثيره كثرت بلاياه، وعظمت محنُه ومصائبه، بسبب ألوان الأذى: من كدر الاختلاقاتِ وضبابية الشبهات التي تحجب رؤية الحقِّ في حقِّ ضعاف البصر والبصيرة، والتي من ورائها قومٌ يتولَّوْن كِبْر المقاومة الأثيمة للدعوة إلى الله تعالى، ويعلنون معاداتهم

للدعاة، وهم ـ في الغالب ـ يتمتَّعون بقيادة المجتمع وسيادته، ويريدون العلوَّ على الناس والفسادَ في الأرض، وكذا جملة تَبَعِهم ممَّن آثروا الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى، وأخلدوا إلى الأرض واتَّبعوا أهواءهم، سواءٌ ممَّن لهم رئاسةٌ وجاهٌ وأموالٌ يريدون بها التسلُّط على الناس، أو لهم دينٌ يريدون به العلوَّ على الناس.

وأصحاب هذه المواصفات ينعتهم القرآن الكريم بها، ويُطلق عليهم تسمية: «الملأ» بيانًا لواقعهم لا لأنهم يستحقُّون السيادة والشرف والرئاسة، وقد كان أصحاب النعوت السابقة يقودون ـ من قبلُ ـ حملةَ الكذب والافتراء والتضليل على أنبياء الله الكرام، وقد جاء التعبير القرآني يبيِّن ـ بوضوح ـ ما مضت عليه سنَّة الله في عباده، فقال تعالى عنهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ [ص]، وغيرها من الآيات ـ وهي كثيرةٌ ـ تجلِّي توارُثَ هذه الشنشنة بين أهل الباطل منذ القديم.

هذا، ودوافع عداوة أهل الباطل للدعاة إلى الله تكمن معظمها في:

- آفة الكبر الذي يُعمي صاحبَه عن رؤية الحقِّ بله الانتفاع بالهدى، وإن أبصر الحقَّ فإنه يمنعه الكبر من الاعتراف به والانقياد له، إذ المتكبِّر يعتبر نفسه فوق أقدار الناس، الأمر الذي يجعل كبره يحجب عنه الرؤية لقدر نفسه، لذلك

يتعالى عن الانضمام إلى الناس أو أن يكون معهم أو تابعًا لأحدٍ منهم، ناهيك إذا ما اقترن الحسد بالكبر، فإنه يزيده ظلمًا وطغيانًا عن الحقِّ وصدودًا عن الهدى، وتقوى عداوته للدعوة إلى الله ومحاربتُه لأهلها، وقد جاء التمثيل بفرعون وقومه يعكس هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل]، وقال تعالى عن ملإ قوم نوح: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود].

• **آفة الجهل**، والجاهل يحقد على الداعي إلى الله، ويعتقد أنه مفسدٌ في الأرض، ويظنُّ من نفسه أنه موكولٌ إليه الدفاع عن دين الناس وحقوقهم، ويعمل على إبعادهم ومحاربتهم خشيةَ تحويلهم الناس ـ في زعمه واعتقاده ـ عن ملَّة آبائهم إلى دينٍ جديدٍ لم يسبق لهم أن سمعوا به.

• **آفة حبِّ الرئاسة والزعامة** وطلبها على الناس للتسلُّط عليهم، بغضِّ النظر عن كون أهل محبَّة الرئاسة ممَّن لهم سلطةٌ ومَنَعَةٌ أو ممَّن لهم علمٌ ودينٌ، الذين لم تتمَّ لهم أغراضهم إلَّا بمخالفة الحقِّ ودفْعِه، خاصَّةً إذا قامت شبهاتٌ تتَّفق مع شهواتهم، ويثور الهوى فيعارضون كلَّ دعوةٍ إلى الله مهما اتَّسمت بالإخلاص والصدق، خشيةَ أن تسلبهم سلطانَهم ومكانتهم ومناصبهم، فيجمعون الأباطيل والأكاذيب لتسويغ عداوتهم، تلك هي آفتهم: آثروا الدنيا وابتغَوُا الرئاساتِ والشهوات، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحقِّ بما كسبت أيديهم.

تلك هي أهمُّ الدوافع وهي أسباب بعدهم عن الحقِّ وعدم انتفاعهم بالهدى، فالدعوة الإصلاحية تهدِّد مكانتهم ومركزهم فيحاربون الدعاة إلى الله بالخصومة وأنواع الصدود التي تأخذ في مجملها التشكيكَ والارتياب في ذات الداعية وفي صدق دعوته وفي مصداقية أتباعه من المدعوِّين، وإحداث شبهاتٍ في مسار الدعوة، وغالبًا ما تكون مرتبطةً بعاداتٍ موروثةٍ أو مصالحَ دنيويةٍ أو حميَّةٍ جاهليةٍ، والقصدُ من إثارة الشبهات هو تنفير الناس عن حقيقة الدعوة في موضوعها وجوهرها وصدُّ الناس عن سبيلها.

ففيما يتعلَّق بشخصية الداعي إلى الله يرمي المبطلون سهامَ الطعن في سيرته وسلوكه وأمانته أو أخلاقه أو في علمه بل حتى في سلامة عقله، فقد يوصف بالسفه والضلالة والجهل.

ومن أساليب المبطلين ـ أيضًا ـ إثارة الشبهات على شخصية الداعية بأنه غير معروف المكانة في المجتمع ولا من ذوي المناصب الأدبية ولا من ذوي الشهادات العالية والمعارف القويَّة، أو ينتمي إلى التيَّار الموالي للأعداء، أو له شذوذٌ في الفتاوى والأقوال، أو هو رجلٌ عاديٌّ لا يتميَّز بسمعةٍ مرموقةٍ بل هو مغمورٌ ضعيفٌ لا هو في العير ولا في النفير.

وأمَّا أتباعه فهُم فقراءُ جهَّالٌ، قِصَارُ نظرٍ ورأيٍ، ويتَّبعون من لا يفقه واقعَ الناس، ودعوته خارجةٌ عن مألوفهم وعاداتهم الموروثة ونحو ذلك، تقصُّدًا لتنفير الناس منه وسلبِ تأثير دعوته فيهم وإضعاف ثقة الناس به وتزيين الباطل لهم، وإظهار الحرص لهم على مصالحهم وعاداتهم ودين آبائهم، فيدفعونهم إلى مخاصمة

الحقِّ وأهله من أجل الشبهات المزيَّنة لهم، وهذه شنشنةٌ قديمةٌ لا تتغيَّر في موضوعها ولا تتبدَّل في جوهرها، وإنما الذي يتغيَّر فيها الأسلوب والكيفية، وقد جاء الخطاب الإلهيُّ لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ مؤكِّدًا لهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣].

وقد تعرَّض القرآن الكريم لأساليب المبطلين في الطعون وإثارة الشبهات في حقِّ أنبياء الله الكرام، فيرمونهم في أشخاصهم وعقولهم وأمانتهم كما يطعنون فيهم بالإفساد في الأرض وطلب العلوِّ والرئاسة، فمن نماذج ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان].

هذا، ولترويج الباطل أسبابٌ متعدِّدةٌ تضمَّنت أساليبَ ماكرةً وطرقًا ملتويةً يستعملها المبطلون، وقد أفصح عنها ابن القيِّم رحمه الله، ونظرًا لمناسبتها لهذا الموضوع وأهمِّيتها في كشف الوجوه المروِّجة للباطل وبيان أحوال أهلها،

فقد رأيتُ من المفيد نقْلَ نصِّ ابن القيِّم رحمه الله بكامله حيث قال:

«السبب الأوَّل: أن يأتيَ به صاحبه مموَّهًا مزخرف الألفاظ ملفَّق المعاني مكسوًّا حلَّةَ الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حالَ من يعرض سلعةً مموَّهةً مغشوشةً على من لا بصيرةَ له بباطنها وحقيقتها فيحسِّنها في عينه ويحبِّبها إلى نفسه، وهذا الذي يعتمده كلُّ من أراد ترويجَ باطلٍ، فإنه لا يتمُّ له ذلك إلَّا بتمويهه وزخرفته وإلقائه إلى جاهلٍ بحقيقته.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعضٍ من القول فيغترُّ به الأغمار[1] وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل ثمَّ ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بصغوها وميلها إليه ورضاها به لِما كُسي من الزخرف الذي يغرُّ السامعَ، فلمَّا أصغت إليه ورضِيَتْه اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولًا وعملًا، فتأمَّلْ هذه الآياتِ وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدرِ الذي فيه بيانُ أصول الباطل والتنبيهُ على مواقع الحذر منها وعدم الاغترار بها، وإذا تأمَّلْتَ مقالاتِ أهل الباطل رأيتهم قد كَسَوْها من

---

(١) الأغمار: جمع غُمْر، بالضمِّ، وهو الجاهل الغِرُّ الذي لم يجرِّب الأمور. انظر: «لسان العرب» لابن منظور (٥/ ٣٢).

العباراتِ وتخيَّروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قَبوله كلُّ من ليس له بصيرةٌ نافذةٌ، وأكثر الخلق كذلك، حتى إنَّ الفجَّار ليُسَمُّون أعظم أنواع الفجور بأسماءٍ لا ينبو عنها السمع ويميل إليها الطبع، فيُسمُّون أمَّ الخبائث أمَّ الأفراح، ويسمُّون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي تثير العزمَ الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمُّون مجالسَ الفجور والفسوق مجالسَ الطيبة، حتى إنَّ بعضهم لمَّا عُذل عن شيءٍ من ذلك قال لعاذله: تركُ المعاصي والتخوُّف منها إساءة ظنٍّ برحمة الله وجرأةٌ على سَعَة عفوه ومغفرته، فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلبٍ ممتلئٍ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة.

السبب الثاني: أن يُخرج المعنى الذي يريد إبطالَه بالتأويل في صورةٍ مستهجنةٍ تنفر عنها القلوب وتنبو عنها الأسماع، فيتخيَّر له من الألفاظ أكرهَها وأبعدها وصولًا إلى القلوب وأشدَّها نفرةً عنها فيتوهَّم السامع أنَّ معناها هو الذي دلَّت عليه تلك الألفاظ: فيسمِّي التديُّن ثقالةً، وعدمَ الانبساط إلى السفهاء والفسَّاق والبطَّالين سوءَ خُلُقٍ، والأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر والغضبَ لله والحميَّةَ لدينه فتنةً وشرًّا وفضولًا، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف هذا معظم ما ينفِّرون به عن الحقِّ ويدْعُون به إلى الباطل، فيسمُّون إثباتَ صفات الكمال لله تجسيمًا وتشبيهًا وتمثيلًا، ويسمُّون إثباتَ الوجه واليدين له تركيبًا، ويسمُّون إثباتَ استوائه على عرشه وعلوَّه على خلقه فوق سمواته تحيُّزًا وتجسيمًا، ويسمُّون العرش حيِّزًا وجِهَةً، ويسمُّون الصفاتِ أعراضًا، والأفعالَ حوادثَ، والوجهَ واليدين أبعاضًا، والحِكَمَ والغاياتِ التي يفعل لأجلها أغراضًا، فلمَّا

وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظَ المستنكَرة الشنيعة تمَّ لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه، فقالوا للأغمار والأغفال: اعلموا أنَّ ربَّكم منزَّهٌ عن الأعراض والأغراض والأبعاض والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه، فلم يشكَّ أحدٌ لله في قلبه وقارٌ وعظمةٌ في تنزيه الربِّ تعالى عن ذلك، وقد اصطلحوا على تسمية سمعه وبصره وعلمه وقدرته وإرادته وحياته أعراضًا، وعلى تسمية وجهه الكريم ويديه المبسوطتين أبعاضًا، وعلى تسمية استوائه على عرشه وعلوِّه على خلقه وأنه فوق عباده تحيُّزًا، وعلى تسمية نزوله إلى سماء الدنيا وتكلُّمه بقدرته ومشيئته إذا شاء وغضبِه بعد رضاه ورضاه بعد غضبه حوادثَ، وعلى تسمية الغاية التي يفعل ويتكلَّم لأجلها غرضًا، واستقرَّ ذلك في قلوب المتلقِّين عنهم، فلمَّا صرَّحوا لهم بنفي ذلك بقي السامع متحيِّرًا أعظمَ حيرةٍ بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له جميع رسله وسلفُ الأمَّة بعدهم وبين إثباتها وقد قام معه شاهدُ نفيِها بما تلقَّاه عنهم، فمن الناس من فرَّ إلى التخييل، ومنهم من فرَّ إلى التعطيل، ومنهم من فرَّ إلى التجهيل، ومنهم من فرَّ إلى التمثيل، ومنهم من فرَّ إلى الله ورسوله وكشفَ زيفَ هذه الألفاظ وبيَّن زخرفها وزَغَلَها وأنها ألفاظٌ مموَّهةٌ بمنزلة طعامٍ طيِّب الرائحة في إناءٍ حسن اللون والشكل، ولكنَّ الطعام مسمومٌ، فقالوا ما قاله إمام أهل السنَّة باتِّفاق أهل السنَّة أحمدُ بن حنبلٍ: «لا نزيل عن الله صفةً من صفاته لأجل شناعة المشنِّعين».

ولـمَّا أراد المتأوِّلون المعطِّلون تمامَ هذا الغرض اخترعوا لأهل السنَّة الألقابَ القبيحة فسمَّوْهم حشويةً ونوابتَ ونواصبَ ومجبرةً ومجسِّمةً ومشبِّهةً

ونحو ذلك، فتولَّد من تسميتهم لصفات الربِّ تعالى وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء، وتلقيبٍ من أثبتها له بهذه الألقاب لعنةُ أهل الإثبات والسنَّة وتبديعُهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم ولَقُوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يَرِثَها الله ومن عليها.

السبب الثالث: أن يَعْزُوَ المتأوِّل تأويلَه وبدعته إلى جليل القدر نبيه الذكر من العقلاء أو من آل البيت النبويِّ أو من حلَّ له في الأمَّة ثناءٌ جميلٌ ولسان صدقٍ ليحلِّيَه بذلك في قلوب الأغمار والجهَّال، فإنَّ من شأن الناس تعظيمَ كلامِ مَن يعظم قدرُه في نفوسهم، وأن يتلقَّوْه بالقبول والميل إليه، وكلَّما كان ذلك القائل أعظمَ في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتمَّ حتى إنهم ليقدِّمونه على كلام الله ورسوله ويقولون: هو أعلم بالله ورسوله منَّا، وبهذه الطريق توصَّل الرافضة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية إلى تنفيق باطلهم وتأويلاتهم حتى أضافوها إلى أهل بيت رسول الله ﷺ لمَّا علموا أنَّ المسلمين متَّفقون على محبَّتهم وتعظيمهم وموالاتهم وإجلالهم، فانتمَوْا إليهم وأظهروا من محبَّتهم وموالاتهم واللهج بذكرهم وذِكْر مناقبهم ما خيَّل إلى السامع أنهم أولياؤهم وأَوْلى الناس بهم، ثمَّ نفَّقوا باطلَهم وإفكهم بنسبته إليهم، فلا إله إلاَّ الله كم من زندقةٍ وإلحادٍ وبدعةٍ وضلالةٍ قد نفقت في الوجود بنسبتها إليهم وهُمْ براءٌ منها براءةَ الأنبياء من التجهُّم والتعطيل، وبراءةَ المسيح من عبادة الصليب والتثليث، وبراءةَ رسول الله ﷺ من البدع والضلالات.

وإذا تأمَّلتَ هذا السبب رأيتَه هو الغالبَ على أكثر النفوس، وليس معهم

سوى إحسانِ الظنِّ بالقائل بلا برهانٍ من الله ولا حجَّةٍ قادتهم إلى ذلك، وهذا ميراثٌ بالتعصيب من الذين عارضوا دينَ الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنِّهم بهم وتعظيمهم لهم آثروا ما كانوا عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظمَ في صدورهم من أن يخالفوهم ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كلِّ مقلِّدٍ لمن يعظِّمه فيما خالف فيه الحقَّ إلى يوم القيامة.

السبب الرابع: أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضِيَه مبرِّزٌ في صناعةٍ من الصناعات أو علمٍ من العلوم الدقيقة أو الجليلة، فيعلو له بما برَّز به ذكرٌ في الناس ويشتهر له به صِيتٌ، فإذا سمع الغمر الجاهل بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له أحسنَ الظنَّ به وارتضاه مذهبًا لنفسه ورضِيَ من قَبِلَه إمامًا له، وقال: إنه لم يكن ليختارَ مع جودة قريحته وذكائه وصحَّة ذهنه ومهارته بصناعته وتبريزه فيها على بني جنسه إلَّا الأصوبَ والأفضل من الاعتقادات والأرشدَ والأمثل من التأويلات، وأين يقع اختياري من اختياره ؟ فرضيتُ لنفسي ما رضِيَه لنفسه، فإنَّ عقله وذهنه وقريحته إنما تدلُّه على الصواب كما دلَّته على ما خفيَ عن غيره من صناعته وعلمه. وهذه الآفة قد هلك بها أممٌ لا يحصيهم إلاَّ الله، رأَوُا الفلاسفةَ قد برَّزوا في العلوم الرياضية والطبِّية واستنبطوا بعقولهم وجودة قرائحهم وصحَّة أفكارهم ما عجز أكثر الناس عن تعلُّمه فضلاً عن استنباطه، فقالوا للعلوم الإلهية والمعارف الربَّانية أسوةً بذلك: فحالُهم فيها مع الناس كحالهم في هذه العلوم سواءً، فلا إله إلاَّ الله، كم أهلكت هذه البليَّة من أمَّةٍ ؟ وكم ضربت من دارٍ ؟ وكم أزالت من نعمةٍ وجلبت من نقمةٍ، وجرَّأت كثيرًا من النفوس على تكذيب الرسل

واستجهالهم ؟ وما عرف أصحاب هذه الشبهة أنَّ الله سبحانه قد يعطي أجهلَ الناس به وبأسمائه وصفاته وشرعه من الحذق في العلوم الرياضية والصنايع العجيبة ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفُهم، وقد قال النبيُّ ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِدُنْيَاكُمْ»، وصدق صلوات الله وسلامه عليه، فإنَّ العلوم الرياضية والهندسية وعلم الأرثماطيقي والموسيقى والجغرافيا وإيرن ـ وهو علم جرِّ الأثقال ووزن المياه وحفر الأنهار وعمارة الحصون ـ وعلم الفلاحة وعلم الحميَّات وأجناسها، ومعرفة الأبوال وألوانها وصفاتها وكدرها وما يدلُّ عليه، وعلم الشعر وبحوره وعِلَلِه وزحافه وعلم القنيطة ونحو ذلك من العلوم هم أعلم بها وأحذق فيها.

وأمَّا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتفاصيل ذلك فإلى الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم]، قال بعض السلف: يبلغ من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقر الدرهم بظفره فيعلم وزنه ولا عِلْم له بشيءٍ من دينه، وقال تعالى في علوم هؤلاء واغترارهم بها: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨٣﴾ [غافر]، وقد فاوت الله سبحانه بين عباده فيما تناله عقولهم وأذهانهم أعظمَ تفاوتٍ، والعقل يعطي صاحبَه فائدتَه في النوع الذي يُلزمه به ويشغله به ويقصره عليه ما لا يعطيه في غيره وإن كان غيره أسهلَ منه بكثيرٍ، كما يعطيه همَّته وقريحته في الصناعة التي هو معنيٌّ بها ومقصور العناية عليها ما لا يعطيه في صناعةٍ غيرها،

وكثيرًا ما تجد الرجلَ قد برَّز في اللطيف من أبواب العلم والنظر وتخلَّف في الجليل منها، وأصاب الأغمض الأدقَّ منها وأخطأ الأجلَّ الأوضح، هذا أمرٌ واقعٌ تحت العيان، فكيف وعلوم الأنبياء ومعارفهم من وراء طور العقل، والعقل - وإن لم يستقلَّ بإدراكها - فإنه لا يحيلها، بل إذا أُوردتْ عليه أقرَّ بصحَّتها وبادر إلى قبولها وأذعن بالانقياد إليها، وعلم أنَّ نسبة العلوم التي نالها الناس بأفكارهم إليها دون نسبة علوم الصبيان ومعارفهم إلى علوم هؤلاء بها لا يُدْرَك.

السبب الخامس: الإغراب على النفوس بما لم تكن عارفةً به من المعاني الغريبة التي إذا ظفر الذهن بإدراكها ناله لذَّةٌ من جنس لذَّة الظفر بالصيد الوحشيِّ الذي لم يكن يطمع فيه، وهذا شأن النفوس، فإنها مُوكلةٌ بكلِّ غريبٍ تستحسنه وتؤثره وتنافس فيه، حتى إذا كثر ورخُصَ وناله المُثري والمقلُّ زَهِدَتْ فيه مع كونه أنفعَ لها وخيرًا لها، ولكن لرخصه وكثرة الشركاء فيه، وتطلب ما تتميَّز به عن غيرها للذَّة التفرُّد والاختصاص، ثمَّ اختاروا لتلك المعاني الغريبة ألفاظًا أغرب منها وألقَوْها في مسامع الناس وقالوا: إنَّ المعارف العقلية والعلوم اليقينية تحتها، فتحرَّكت النفوس لطلب فهم تلك الألفاظ الغريبة وإدراك تلك المعاني، واتَّفق أن صادفت قلوبًا خاليةً من حقائق الإيمان وما بعث الله به رسوله، فتمكَّنت منها فعزَّ على أطبَّاء الأديان استنقاذُها منها وقد تحكَّمت فيها كما قيل:

تَاللهِ مَا أَسَرَ الهَوَى مِنْ وَامِقٍ ... إِلَّا وَعَزَّ عَلَى الوَرَى اسْتِنْقَاذُهُ

ولمكان الاستغراب وقبول النفس لكلِّ غريبٍ لهج الناس بالأخبار الغريبة

وعجائب المخلوقات والألغاز والأحاجي والصور الغريبة، وإن كانت المألوفة أعجبَ منها وأحسن وأتمَّ خِلْقةً.

السبب السادس: تقديم مقدِّماتٍ قبل التأويل تكون كالأطناب والأوتاد لفسطاطه، فمنها ذمُّ أصحاب الظواهر وعيبُهم والإزراء بهم وأنهم قومٌ جُهَّالٌ لا عقول لهم، وإنما هم أصحاب ظواهرَ سمعيةٍ، وينقلون من مثالبهم وبَلَهِهم ما بعضُه صدقٌ وأكثره كذبٌ، كما يحكى أنَّ بعضهم سئل عن قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: هل هو حقيقةٌ أو مجازٌ؟ قال: لا حقيقةٌ ولا مجازٌ، فقال له: جزاك الله عن ظاهريتك خيرًا، وأمثال هذا، ويحكون عنهم إنكارَ أدلَّة العقول والبحثِ والنظر وجدال أهل الباطل، والنفوسُ طالبةٌ للنظر والبحث والتعقُّل. ومنها قولهم: إنَّ الخطاب بالمجاز والاستعارة أعذبُ وأوفق وألطف، وقد قال بعض أئمَّة النحاة: أكثر اللغة مجازٌ، فإذا كان أكثر اللغة مجازًا سَهُلَ على النفوس أنواعُ التأويلات، فقُلْ ما شئتَ وأوِّلْ ما شئتَ، وانزِلْ عن الحقيقة ولا يضرُّك أيَّ مجازٍ ركَّبْتَه.

ومنها قولهم: إنَّ أدلَّة القرآن والسنَّة أدلَّةٌ لفظيةٌ وهي لا تفيد علمًا ولا يقينًا، والعلم إنما يستفاد من أدلَّة المعقول وقواعد المنطق.

ومنها قولهم: إذا تعارض العقل والنقل قُدِّم العقل على النقل، فهذه المقدِّمات ونحوها هي أساس التأويل، فإذا انضمَّت هذه الأسباب بعضُها إلى بعضٍ وتقاربت؛ فيا محنةَ القرآن والسنَّة وقد سلكا في قلوبٍ قد تمكَّنَتْ منها هذه

الأسباب، فهنالك التأويل والتحريف والتبديل والإضمار والإجمال»[1].

وأخيرًا، فالواجب على الداعي إلى الله الابتعاد عن أماكن الشبهات ومواضع التُّهَمِ ومحالِّ الافتراءات، فيعمل على ترك بعض المباحات أو ما فيه فائدةٌ لدفع ضررِ شبهةٍ باطلةٍ، ففي دفعها نفعٌ أكثر من جلبها، فلا يسأل ما يخصُّ نفْسَه وحظوظه المباحة ولا تقديسَ نفسه والانتصارَ لها، كما يترك المداهنة والتملُّق والتزلُّف ونحو ذلك ممَّا يتشبَّث به أهل الباطل في إثارة الشبهات ليصدُّوا الناسَ عن الدعوة والدعاة، وعلى الداعي إلى الله أن يفنِّد الأباطيلَ ويُظهر زيفَ الأكاذيب، ويبطل بالحجَّة والبرهان شُبَهَ المبطلين في قالبٍ من الحكمة والتأنِّي والتبصُّر والرفق دون استفزازٍ أو ركونٍ، خشيةَ أن يحمله تصرُّفه على الانتصار لنفسه والغضب لها.

علمًا أن الشبهة إذا عشعشت في الأذهان وشاعت بين الناس تركت أثرًا ظاهرًا في النفوس، لا سيَّما الضعيفة والمتربِّصة والجاهلة، يصعب القضاء عليها وإزالتها بعد تمكُّنها، لذلك كان «الدَّفْعُ أَسْهَلَ مِنَ الرَّفْعِ».

وعلى الداعي إلى الله أن يتسلَّى بقصص الأنبياء إذا ما اغتمَّ ويتَّعظ بمواقفهم في إزالة طعونات المبطلين وشبهات المفسدين، مع تجريدهم الكامل لله تعالى واحتساب ما يلقَوْنه من الأذى عند الله تعالى.

هذا، وليس معنى دفعِ ضررِ الافتراءات وإبعاد الشبهات أن يتركَ الداعي إلى الله الدعوةَ إلى الله بسببها أو يُهمل منهجَها وأسلوبها، بل هو مطالَبٌ بأن لا

---

(١) «الصواعق المرسلة» لابن القيِّم (٢/ ٤٣٦ ـ ٤٥١).

يقطعَ ما يخصُّ صميمَ الدعوة وما يتَّصل بها، لأنه من الدعوة الواجبِ القيامُ بها أحسنَ قيامٍ بدعوةٍ شاملةٍ لجميع الناس إلى عبادة الله وحده لا شريكَ له وبيانِ لوازمها الإيمانية، لا فرْقَ في دعوته بين شريفٍ ووضيعٍ، ولا بين قويٍّ وضعيفٍ، أو غنيٍّ وفقيرٍ، وإنما على الداعي إلى الله أن يَدَعَ ما يتعلَّق بخصوص نفسه وحظوظه الدنيوية المباحة ونحوها؛ لئلاَّ يترك فرصةً للمبطلين للتعلُّق بها فيتَّخذوها تكأةً لإثارة الشبهات على وجهِ صدِّ دعوة الحقِّ وإضعاف الداعي إلى الله ومن معه في الميدان الدعوي.

واللهَ تعالى نسأل ـ وهو خير مسؤولٍ ـ أن يُرِيَنا الحقَّ حقًّا ويرزقنا اتِّباعه، والباطلَ باطلًا ويرزقَنا اجتنابَه، وأن يوفِّقنا للحقِّ والهدى اعتقادًا وعملًا ودعوةً، ويجعلَنا من الذين قال الله فيهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس].

تذكيرٌ للداعية

الدعوة إلى الله تعالى دعوة علمٍ ويقينٍ وإصلاحٍ وخيرٍ، وهي وظيفة الرسل والأنبياء جميعًا، ودعوتهم قائمةٌ على عبادة الله وحده والتبرُّؤ من عبادة ما سواه، والقيام بعبادة الله بجميع أنواعها على وجهٍ مُرْضٍ مهما أمكن، والزجر عن كلِّ ما نهى الله عنه، سالكين سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء النصيحة للمدعوِّين على وجهها الكامل، وترتقي مكانة الداعي إلى الله بحسب مقدار عمله وقدرته، ذلك لأنَّ دعوته تبعٌ لدعوة الأنبياء والمرسلين، يعمل على تعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين والمناوئين والشانئين بالتي هي أحسن، والحثُّ على مكارم الأخلاق، والإحسان ـ في دعوته ـ إلى عموم الخلق، والترغيب في الطريق المُوصل إلى الله تعالى، وربط المدعوِّين بكتاب ربِّهم وسنَّة نبيِّهم، والترغيب في اقتباس العلم والهدى منهما، فدعوتُه ـ إذًا ـ مشروطةٌ بالعلم النافع ـ وهو بطبيعته قابلٌ للتجزئة والتبعيض ـ إذ لا يخفى أنَّ العلم بصحَّة ما يدعو إليه الداعي شرطٌ لصحَّة الدعوة، لذلك يعمل الداعية على تفادي الوقوع في فساد العلم بعدم تحقيق موافقة علمه ومطابقته لمراد الله تعالى، كما يعمل على تجنُّب الوقوع في فساد الإرادة، وذلك بتجريدها من شوائب الهوى وإرادة الخلق، وهما

آفتان تُفسدان علمه وعمله، قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا العلم فآفته عدم مطابقته لمراد الله الدينيِّ الذي يحبُّه الله ويرضاه وذلك يكون من فساد العلم تارةً، ومن فساد الإرادة تارةً؛ ففسادُه من جهة العلم أن يعتقد أنَّ هذا مشروعٌ ومحبوبٌ لله وليس كذلك، أو يعتقد أنه يقرِّبه إلى الله وإن لم يكن مشروعًا، فيظنُّ أنه يتقرَّب إلى الله بهذا العمل وإن لم يعلم أنه مشروعٌ.

وأمَّا فساده من جهة القصد فأن لا يقصد به وجهَ الله والدارَ الآخرة، بل يقصد به الدنيا والخَلْق. وهاتان الآفتان في العلم والعمل لا سبيل إلى السلامة منهما إلَّا بمعرفة ما جاء به الرسول في باب العلم والمعرفة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة في باب القصد والإرادة، فمتى خلا من هذه المعرفة وهذه الإرادة فسد علمُه وعمله»[1]، وإذا كانت الدعوة إلى الله ملازمةً ومتضمِّنةً للعلم فليست مقيَّدةً بفئةٍ معيَّنةٍ، وإنما هي لكلِّ من يمتلك المواصفاتِ الشرعيةَ للدعوة، فهو أهلٌ لها، ولا هي مقيَّدةٌ بوقتٍ محدَّدٍ أو قاصرةٌ على خُطَبٍ تُلقى، أو على دروسٍ أو حلقاتٍ تُملى، وقد تكون على فتراتٍ متقطِّعةٍ من الزمن، وإنما الدعوة إلى الله تؤدَّى في جميع الأحوال بما تسمح بالقيام بها قدرات الداعية وظروفه في كلِّ الأوقات، سواءً تعلَّقت الأوقات بالمواسم أو العوارض أو النوازل أو المصائب أو ما يناسب ذلك الحالَ أو غيره ممَّا تشْمَله الدعوة إلى الخير كلِّه والترهيب من الشرِّ كلِّه، ويتجلَّى هذا المعنى فيما أخبر الله به تعالى عن نوحٍ عليه السلام حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا

(١) «الفوائد» لابن القيِّم (٨٥).

﴿وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح]، ويوسف عليه السلام لم يشغله السجن وضيقه عن واجب الدعوة إلى الله تعالى، فقد دعا السجينين إلى الله تعالى قبل أن يجيبهما عن رؤيا رآها كلُّ واحدٍ منهما، قال تعالى مخبرًا عنه: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف]، وكذلك كان نبيُّنا ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، لم يشغله شيءٌ عن الدعوة إلى الله تعالى.

وعلى الداعي إلى الله أن يؤدِّيَ واجبَه في البلاغ والتبيين من غير أن ينتظر استجابةَ الناس له، وإنما يستمرُّ في دعوته كما يداوم على أداء سائر العبادات الداخلة في تكليفه، وله أن يسأل الأجر والمثوبة من الله دون أن يجعل بغيتَه الجزاءَ والشكور من عباد الله، ولا أن يتَّخذ دعوته مطيَّةً لتحصيل الأعواض المالية والمنافع المادِّية والمعنوية كالثناء والشهرة والجاه والمناصب ونحو ذلك ممَّا يصبو إليها أهل الدنيا والطمع فيما عند الناس، فإنَّ هذا لا يجري على هدي الأنبياء والمرسلين من الإخلاص لله والاستعانة به والطمع فيما عنده، قال الله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ

﴿٢٢﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان]، فالأجر من الله عظيمٌ وباقٍ، وقد قال النبيُّ ﷺ لعليٍّ ﷺ: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(١)، وقال ﷺ ـ أيضًا ـ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»(٢)، والمعلوم الذي تجري عليه سنن الله في خلقه أنَّ من لم يجرِّد قصْدَه عن الهوى وإرادةِ الخَلْق دون الخالق وجعل الدنيا همَّه؛ فإنَّ الله يَكِلُه إلى نفسه، ويُبلي بعبودية المخلوق ومحبَّته وخدمته.

هذا، وأخيرًا فإنَّ أحسن الكلام وأفضل طريقٍ ـ في ميزان الله تعالى ـ هو الدعوة إلى الله تعالى بتحبيب الإسلام وإظهار محاسنه، والنهي عمَّا يُضادُّه من الكفر والشرك، وتوجيه عموم الناس إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم: تعليميًا وتربيةً ووعظًا وإرشادًا وتوجيهًا يسلكه الداعي في مهمَّته الدعوية، متحلِّيًا بالعلم النافع والعمل الصالح على وجه الطاعة والانقياد، وبالمواصفات الأخلاقية الكريمة

---

(١) متَّفقٌ عليه: أخرجه البخاري في «الجهاد والسير» باب دعاء النبيِّ ﷺ الناسَ إلى الإسلام والنبوَّة، وأن لا يتَّخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله (٢٩٤٢)، ومسلم في «فضائل الصحابة» (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعدٍ الساعدي ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في «العلم» (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

والحكمة والموعظة الحسنة، فإنَّ العلم النافع والعمل الصالح هما دعوة الحقِّ والسبيل الوحيد للسعادة والفلاح، وقد جمع الله تعالى بين معرفة الحقِّ والعمل به في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر]، وعُنِيَ بذكرهما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]، فدعوة الحقِّ ـ إذًا ـ هي إخلاص العمل لله تعالى وحده لا شريك له المتضمِّن معرفةَ الله تعالى ومعرفة شرعه ودينه[1]، وتمامُ هذه الرتبة للصدِّيقين الذين عملوا على إصلاح أنفُسهم وتكميلها، ووسَّعوا دائرة الإصلاح والتكميل إلى غيرهم، خاصَّةً عند إنكار الجاحدين ومحاربة المبطلين والمعاندين وشيوع التمرُّد على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت]، «ولا يتمُّ الإيمان إلاَّ بتلقِّي المعرفة من مشكاة النبوَّة وتجريد الإرادة عن شوائب الهوى وإرادة الخَلْق، فيكون علمُه مقتبسًا من مشكاة الوحي وإرادته لله والدار الآخرة، فهذا أصحُّ الناس علمًا وعملاً، وهو من الأئمَّة الذين يهدون بأمر الله، ومن خلفاء رسوله في أمَّته»[2]، تلك هي الوراثة التامَّة من الأنبياء والرسل تتفاضل مراتبها، وقد ترتفع إلى أعلى علِّيِّين بحسب الأعمال الحسنة المقدَّمة إخلاصًا وصدقًا، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٣٢﴾ [الأنعام].

---

(١) انظر: «مجموع الفوائد» للسعدي (١٨٠).

(٢) «الفوائد» لابن القيِّم (٨٥).

نسأل اللهَ التوفيقَ والسداد، للمزيد من العمل الجادِّ، وعلى الله قصدُ السبيل والاتِّكالُ في الحال والمآل.

في حدود استعمال وسائل الدعوة إلى الله تعالى

قد جاءت نصوصٌ عامَّةٌ من الكتاب تأمر بالدعوة إلى الله تعالى وتبليغ الرسالة من غير تقييدٍ بوسائلَ معيَّنةٍ، مثل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [المائدة: ٦٧]، فهذا الميدان الدعوي في حاجةٍ إلى وسائل، وهذا أمرٌ بدهيٌّ، إذ «الأَمْرُ بِالشَّيْءِ أَمْرٌ بِلَوَازِمِهِ»[1]، وإذا كان الأمر بالدعوة والتبليغ لا يتمُّ إلَّا بتحصيل الوسائل وتحقيق الأسباب؛ كان الأخذ بها واجبًا أو مستحبًّا بحسبه، جريًا على قاعدة: «الوَسَائِلُ لَهَا أَحْكَامُ المَقَاصِدِ، فَمَا لَا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَمَا لَا يَتِمُّ المَسْنُونُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ مَسْنُونٌ، وَطُرُقُ الحَرَامِ وَالمَكْرُوهِ تَابِعَةٌ لَهُ، وَوَسِيلَةُ المُبَاحِ مُبَاحَةٌ»[2].

---

(١) انظر تفصيل هذه القاعدة في: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٠/ ١٥٩) وما بعدها.

(٢) انظر: «إعلام الموقِّعين» لابن القيِّم (٣/ ١٣٥)، «القواعد والأصول الجامعة» للسعدي ص (١٠، ١١).

غيرَ أنَّ هذه الوسائلَ ـ من حيث سَعَتُها ـ شاملةٌ للوسائل العبادية والعادية، ومجال توقيف العادية شرعًا أوسع من أن يكون نصًّا خاصًّا يشملها، بل يتعدَّى إلى ما كان عامًّا، أو إلى قاعدةٍ علميةٍ يمكن أن يُستند إليها في تقرير شرعية هذه الوسائل، ذلك لأنَّ مُمارسة العمل الدعوي ومباشرتَه دون معرفة حكمه، والاستناد إلى دليله الشرعي تَحكُّمٌ وعملٌ بالجهل واتِّباعٌ للهوى، وهو مردودٌ على صاحبه، إذ كما لا يجوز الخروج عن الحكم الشرعي في المناهج والمقاصد؛ لا يجوز كذلك في الوسائل، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية]، ولقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف]، ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء]، ولقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وعليه؛ فعموم الوسائل الشرعية ـ سواءٌ كانت عباديةً أو عاديةً ـ لا مدخل للعقل والرأي المجرَّد في حكمها.

ولمزيدٍ من التوضيح في هذا المقام نلفت النظر إلى أنَّ الوسيلة إن كانت من جنس العبادات فإنها تحتاج إلى نصٍّ خاصٍّ يقضي بمشروعيَّتها، ذلك لأنَّ

---

(١) أخرجه ـ بهذا اللفظ ـ مسلمٌ في «الأقضية» (١٧١٨)، واتَّفق الشيخان على إخراجه بلفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»: البخاري في «الصلح» باب إذا اصطلحوا على صُلح جَوْرٍ فالصلح مردودٌ (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة ﵂ وعند البخاري: «... مَا لَيْسَ فِيهِ...».

«العِبَادَاتِ أَصْلُهَا التَّوْقِيفُ وَالمَنْعُ حَتَّى يَرِدَ الدَّلِيلُ النَّاقِلُ عَنْهُ»؛ فلا يشرع منها إلَّا ما شرعه الله تعالى وأذن فيه، لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى]. وبناءً عليه؛ فإنَّ الوسائل العبادية توقيفيةٌ، وحكمها يُؤْخَذ من جهة الشرع، وبالدليل الخاصِّ بها، لا بوصف العموم والإطلاق، إذ لا يلزم من الأمر بوصف العموم والإطلاق ـ في باب العبادات ـ أن يكون مشروعًا بوصف الخصوص والتقييد، أو مأمورًا به، إلَّا إذا جاء دليلٌ مبيِّنٌ للإجمال الحاصل في صفة العموم والإطلاق، ويكون حكم الخصوص والتقييد تابعًا للدليل، فإن جاء موافقًا للأمر العامِّ أو المطلق كان تحصيل المعيَّن بالخصوص والتقييد من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، بتظافر الأدلَّة وتعاضُدها، وإن جاء الدليل مخالفًا للأمر العامِّ أو المطلق كان تحصيلُه من باب تخصيص العموم وتقييد المطلق، وهذا التقرير ـ وإن كان يشمل جانبَ العبادات والعادات والمعاملات ـ إلَّا أنَّ باب العبادات قُيِّد بالدليل الخاصِّ، لأنَّ الأصل فيها التوقيف والمنع ـ كما تقدَّم ـ.

وهذا بخلاف الوسيلة الداخلة في جنس العادات والمعاملات؛ فلا يلزم لثبوتها الأدلَّة الخاصَّة، بل تكفي الأدلَّة والقواعد العامَّة في إثباتها وتقريرها، ذلك لأنَّ «الأَصْلَ فِي المُعَامَلَاتِ وَالعَادَاتِ الإِبَاحَةُ وَالجَوَازُ» حتَّى يَرِدَ الدليل الناقل عنه، فلا يُمنع منها شيءٌ إلَّا ما منعه الشرع وحرَّمه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس]، ولقوله تعالى ـ مُمْتَنًّا على عباده ـ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ولقوله ﷺ: «الحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَالحَرَامُ مَا

حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ»[1]، فالوسائل العاديَّة يُؤْخَذ حكمُها ـ أيضًا ـ من جهة الشرع، لكن لا يُشترط أن يدلَّ عليها دليلٌ خاصٌّ، بل يجوز العمل فيها بالأوامر العامَّة والمطلقة، كما يجوز أن تحال أحكامها إلى القواعد العامَّة.

ولا شكَّ ـ بعد هذا البيان ـ أنَّ الوسائل الدعوية في تعلُّقها بالعادات إن تضمَّنت مصلحةً راجحةً للدعوة ولم تخالف نصًّا شرعيًّا فيجوز مباشرتها لدخولها إمَّا في القواعد العامَّة الكلِّيَّة، أو لاتِّصاف الدليل عليها بصفة العموم والإطلاق، ذلك لأنَّ تحصيل المعيَّن في الوسيلة إن كان مشمولًا بالأمر العامِّ أو المطلق ولم تتعرَّض له الأدلَّة بأمرٍ أو نهيٍ بقي على وصف العموم والإطلاق، وجاز العمل بأيِّ فعلٍ معيَّنٍ يتحقَّق به امتثال الأمر العامِّ أو المطلق، ذلك لأنَّ «الأَصْلَ فِي العَادَاتِ وَالمُعَامَلَاتِ الإِبَاحَةُ وَالجَوَازُ» ـ كما تقدَّم ـ، ويدلُّ عليه عملُ النبيِّ ﷺ بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، حيث اختار النبيُّ ﷺ في الدعوة وسيلةَ الصعود على الصفا ومخاطبةَ بطون قريشٍ، وهذا الاجتهاد في الوسيلة إنما جاء بناؤه على ضوابطَ عامَّةٍ متمثِّلةٍ في الحكمة والموعظة الحسنة المأمور بهما، واتِّخاذ هذه الوسيلة لتكون أسرع إلى الفهم، وأدعى إلى الانقياد، وأقوى في التأثُّر والاستجابة. وكذلك إجماع الصحابة على وجوب المصير إلى وسيلة جمع

---

(١) أخرجه الترمذي في «اللباس» باب ما جاء في لُبس الفِراء (١٧٢٦)، وابن ماجه في «الأطعمة» باب أكل الجبن والسمن (٣٣٦٧)، من حديث سلمان الفارسيِّ ﷺ. وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٣١٩٥).

القرآن الكريم في مصحفٍ واحدٍ لحفظ كلام الله سبحانه وتعالى، وقد تردَّد الصحابة في أوَّل الأمر لعدم ورود دليلٍ خاصٍّ يؤيِّد هذا الفعلَ، كما أنه لم يفعله النبيُّ ﷺ، ثمَّ اعتبروا قوَّةَ هذه الوسيلة لحفظ القرآن الكريم المتمثِّلة في جمعه في مصحفٍ واحدٍ لما في ذلك من مصلحةٍ راجحةٍ.

فالحاصل؛ أنَّ وسائل الدعوة إلى الله تعالى ـ في تقرير مشروعيَّتها ـ يجب أن تُراعى فيها جملةٌ من الضوابط تتمثَّل في وجوب موافقتها للنصوص الشرعية العامَّة والخاصَّة أو قواعد الشرع الكلِّيَّة، كما أنَّ الوسائل إن كانت تابعةً لمقاصدَ مخالفةٍ للشرع فتُمنع بحكم تبعيَّتها للممنوع، لأنَّ طرق الحرام والمكروهات تابعةٌ لها، و«النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ نَهْيٌ عَمَّا لَا يَتِمُّ اجْتِنَابُهُ إِلَّا بِهِ»، وتُمنع ـ أيضًا ـ الوسيلة إذا ما تعلَّق بها وصفٌ منهيٌّ عنه، فتبطل لاقترانها به، كأن يكون شعارًا لليهود والنصارى والمجوس، فقد سبَّب النبيُّ ﷺ وسيلةَ النفخ في البوق للدعوة للصلاة لكونه شعار اليهود، وتخلَّى عن الضرب بالناقوس لكونه شعار النصارى[1]، وترك إيقادَ النار لكونه شعار المجوس[2].

هذا؛ ويُشرع الأخذُ بالوسيلة المشروعة إلى المقصد المشروع شريطةَ أن لا يترتَّب على الأخذ بها مفسدةٌ مساويةٌ أو أكبر من المصلحة المرجوَّة، وإلَّا بطلت

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» في «الصلاة» (٣٧٧) من حديث ابن عمر ﷺ.

(٢) انظر ذِكْرَ النار والناقوس في: «صحيح البخاري» (٦٠٣)، و«صحيح مسلم» (٣٧٨)، من حديث أنس بن مالكٍ ﷺ. وذِكْرَ الناقوس والبوق في «صحيح البخاري» (٦٠٤)، و«صحيح مسلم» (٣٧٧)، من حديث ابن عمر ﷺ.

الوسيلة، عملًا بقاعدة: «الضَّرَرُ لَا يُزَالُ بِمِثْلِهِ»، وقاعدة: «دَرْءُ المَفَاسِدِ أَوْلَى مِنْ جَلْبِ المَصَالِحِ»؛ والعلم عند الله تعالى.

في حكم إنشاء جمعية خيرية دعوية

عمومُ الجمعيات مهما كانت صفتُها إذا عُقِدَ عليها الولاءُ والبراءُ والحبُّ والعداءُ، أو اتَّخذَت أقوالَ قادتِها ومُسَيِّرِيها أصولًا بلا دليلٍ، أو كان من مبادئها التسليمُ بآراء الجماعة وجعلُها قطعيَّةَ الثبوت غيرَ قابلةٍ للنقاش أو النقد، ونحو هذه المعاني فهي ـ بهذا الاعتبار ـ جمعيةٌ حزبيةٌ ولو وُسمت باسم الإسلام، وتُعتبر مشاقَّةً ومحادَّةً لله ولرسوله؛ لأنَّ محورَ الولاء والبراء هو الإيمان بالله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾ [المجادلة]، فالتجمُّع الحزبي مقيتٌ فَرَّقَ الأمَّةَ شِيَعًا وأحزابًا وما زادها إلَّا خبالًا، على مَرِّ العصور وَكَرِّ الدُّهور، فإنَّ الدين أمرنا بالاجتماع على عقيدة التوحيد وعلى متابعة الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وإذا كان التجمُّع الحزبيُّ لا يجوز فإنه لا يمنع من التعاون الشرعي الأخوي المبنيِّ على البرِّ والتقوى والمنضبط بالكتاب والسُّنَّة، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]، ويدخل تحت عموم التعاون الشرعيِّ ما يقوم به الحاكم من تنظيم المسلمين في شكل هيئاتٍ رسميةٍ كالوزارات والمؤسَّسات والجمعيات التي لا تحمل الطابعَ الحزبيَّ أو العصبيَّ على اختلاف مهامِّها وأعمالها المشروعة ممَّا يخصُّ الحياةَ الدينية والدنيوية، كالمؤسَّسات والجمعيات ذات الطابع المهني أو الخيري ونحو ذلك ممَّا لا ينافي شريعةَ الإسلام وأخلاقها وآدابها، ولا يتعارض مع مقاصدها ومراميها، فهذا كلُّه لا تتناوله النصوصُ التي تَذُمُّ الخروجَ عن وحدة الأُمَّة التي أُمرتْ أن تكون واحدةً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون].

وعليه، فإنَّ مجال التعاونِ الأخويِّ المنضبط بالشرع المبنيِّ على البرِّ والتقوى مشروعٌ ومطلوبٌ، وما عداه فمذمومٌ ومردودٌ.

والعلم عند الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا.

الموضوع	الصفحة
• طليعة السلسلة	٧
• الإخلاص بركة العلم وسر التوفيق	٩
فضيلة العلم الشرعي والحض على طلبه	٩
قاعدة الإخلاص قوام المطالب العلمية	١١
اختلاف النيات في تحصيل العلم	١٣
سمة محقق الإخلاص	١٩
مشقة الإخلاص في تثبيت تحول القلب	٢٢
• الدعائم الإيمانية للداعية	٢٥
الدِّعامة الأولى: فهم المنهج الدعوي	٢٥
الدِّعامة الثانية: صدقُ الإيمان الراسخ	٣١
الدِّعامة الثالثة: الاعتماد القلبيُّ الموصول بالله	٤١
• في أخلاق الداعية وأولويات دعوته	٤٩
• مكمن عز الداعية وجوالب محبته	٦١
• أوليات الداعية إلى الله	٦٦

• الشبهات المثارة في وجه الداعية إلى الله (دوافعها وأسباب ترويجها) ٧٥
• دوافع المبطلين في إثارة الشبهات حول الدعاة ٧٦
• أساليب المبطلين في محاربة الدعوة بمحاربة رجالها ٧٨
• تذكيرٌ للداعية ٩٠
• في حدود استعمال وسائل الدعوة إلى الله تعالى ٩٦
• في حكم إنشاء جمعية خيرية دعوية ١٠٢
• المحتويات ١٠٤

صدر للمؤلف

سلسلة توجيهات سلفية

الجواب الصحيح في إبطال شبهات من أجاز الصلاة في مسجد فيه ضريح

لفضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد المعز محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

العدد

١٣

صدر للمؤلف

سلسلة توجيهات سلفية

تحري السداد

في

حكم القيام للعباد والجماد

لفضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد المعز محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

العدد ١٤

صدر للمؤلف

سلسلة توجيهات سلفية

توجيه الاستدلال بالنصوص الشرعية على العذر بالجهل في المسائل العقدية

لفضيلة الشيخ الدكتور

أبي عبد المعز محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

العدد ١٢

دار الموقع

صدر من سلسلة **توجيهات سلفية**

١ **المنطق الأرسطي**
وأثر اختلاطه بالعلوم الشّرعية

٢ **شرك النّصارى**
وأثره على أمّة الإسلام

٣ **تربية الأولاد**
وأسس تأهيلهم

٤ **العلمانيـة**
حقيقتها وخطـورتـها

٥ **نصيحة إلى طبيب مسلم**
ضمن ضوابط شرعية يلتزم بها في عيادته

٦ **الإخـلاص**
بركـة العلم وسرّ التّوفيق

٧ **الإصلاح النّفسي للفرد**
أساس استقامته وصلاح أمّته

٨ **منهج أهل السّنة والجماعة**
في الحكم بالتّكفير بين الإفراط والتّفريط

٩ **حكم الاحتفال بمولد خير الأنام**
عليه الصلاة والسلام

١٠ **دعوى نسبة التّشبيه والتّجسيم**
لابن تيمية وبراءته من ترويج المغرضين لها

١١ **الصّراط في توضيح**
حـالات الاختلاط

١٢ **توجيه الاستدلال بالنصوص الشّرعيّة**
على العذر بالجهل في المسائل العقدية

١٣ **الجواب الصحيح في إبطال شبهات**
من أجاز الصلاة في مسجد فيه ضريح

١٤ **تحرّي السداد**
في حكم القيام للعباد والجماد

١٥ **منصب الإمامة الكبرى**
أحكام وضوابط

١٦ **عُدَّةُ الدّاعيَة إلى الله**

دار الموقع
edition@ferkous.com
www.ferkous.com

ISBN 978-9-9313801-4-6